اللُّطْفُ في التَّعبير في الخطاب القرآنيّ

رسالة تقدم بها

عقيل عبد السلام مقدّم الزيّادي

إلى مجلس كلية التربية - جامعة البصرة

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور فاخر هاشم سعد الياسري

١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ
﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

صدق الله العلي العظيم

توصيـة المشـرف

أشهد أن إعداد هذه الرسالة جرى تحت إشرافي في جامعة البصرة ــ كلية التربية ــ قسم اللغة العربية وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

المشرف
أ . د: فاخر هاشم سعد الياسري
المرتبة العلمية : أستـــاذ
التاريخ : ٩ / ١٢ / ٢٠١٠ م

بناءً على التوصيات المتوفرة أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

رئيس قسم اللغة العربية
أ . م .د: حسين عودة هاشم
المرتبة العلمية : أستاذ مساعد
التاريخ ١٥ / ١٢ / ٢٠١٠م

رئيس لجنة الدراسات العليا
أ . د : سامي علي جبار
المرتبة العلمية : أستـــاذ
التاريخ : ١٥ / ١٢ / ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم
إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة اننا قد اطلعنا على الرسالة الموسومة بـ (اللطف في التعبير في الخطاب القراني) وقد ناقشنا الطالب (عقيل عبد السلام مقدم) في محتوياتها وفي ما له تعلق بها ونشهد أنها جديرة بالقبول بدرجة ( ) لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها.

أ.م .د فالح حمد أحمد
الإمضاء :
التاريخ / ٥ / ٢ / ٢٠١١
رئيسا

أ.م.د قاسم محمد كامل
الإمضاء:
التاريخ /١٠/ ١ / ٢٠١١
عضوا

أ.م.د حسين عودة هاشم
الإمضاء :
التاريخ / ٥ / ٢ / ٢٠١١
عضوا

أ.د فاخر هاشم سعد الياسري
الإمضاء:
التاريخ /٧/ ٢ / ٢٠١١
عضوا ومشرفا

صادقها مجلس كلية التربية/ جامعة البصرة

أ.د أمين عبد الجبار السلمي
عميد كلية التربية

إلى مُعزّ الأولياء ومُذلّ الأعداء

إلى جامع الكلمة على التقوى

إلى باب الله الذي منه يُؤتى

إلى وجه الله الذي إليه يتوجّه الأولياء

إلى السبب المتصل بين الأرض والسماء

القائم المؤمّل الحجة بن الحسن (عليهما السلام)

المهدي المنتظر

أهدي هذا الجهد

عقيـــل

شكر وتقدير

ابتداءً أشكر الله تعالى ذكره شكراً يعجز اللسان عن وصفه على لطفه في نعمة إتمام هذه البحث ، فضلاً على نعمه الجزيلة التي يستحيل إحصاؤها وعدّها ، وأشكر رسول الله الكريم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الطيبين الطاهرين الذين بهم رُزق الورى وببركاتهم ودعائهمَ منَّ الله علينا بنعمه الجزيلة الوارفة .

ثم أشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور فاخر هاشم الياسري ، إذ كان لي نِعم العون والسند في إشرافه على هذه الرسالة ، وذلك من خلال ما قام به من توجيه وتقويم وما أبداه من آراء وملاحظات غنيّة قيّمة أسهمت في إمداد هذا البحث وإنضاجه ، وقد عشت مستأنساً بما يقترحه ويبديه من آراء وتوجيهات ، وقد بذل في إشرافه جهداً كبيراً من خلال متابعته مراحل البحث خطوةً بخطوة فجزاه الله خير الجزاء .

كذلك أشكر عمادة كلية التربية ، والدراسات العليا ، ورئاسة قسم اللغة العربية ، وأساتذتي الأجلاّء الذين لم يبخلوا عليّ من غزارة علمهم وسديد ملاحظاتهم .

والشكر موصول لمنتسبي المكتبة المركزية في جامعة البصرة والمكتبة العامة في القرنة ومكتبة جامع القرنة الكبير ومكتبة نازك الملائكة في كلية التربية ، وأشكر الأخ عدنان صالح مشاري صاحب مكتبة (إقــرأ) في القرنة لما أبداه من خدمة وتسهيل في سبيل الحصول على بعض مصادر الدراسة ، وكل من مدّ يد العون والمساندة .

الفهرس

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
الإهداء	
شكر وتقدير	
الفهرس	
المقدمة	أ ــ د
التمهيـــــد	١
الفصل الأول : التعبير في مجال الاتصال والعلاقات الزوجية والأحوال الخاصة والأمور التعاملية	٧ ــ ٣٩
المبحث الأول : في مجال الاتصال والعلاقات الزوجية	١٠
التعبير عن الجماع بالرفث	١١
التعبير عن الجماع بالمباشرة	١٢
التعبير عن الجماع بالقرب	١٤
التعبير عن الجماع بالإتيان	١٥
التعبير عن الجماع بالمس	١٦
التعبير عن الجماع بالإفضاء	١٧
التعبير عن الجماع بالدخول	١٨
التعبير عن الجماع باللمس	١٩
التعبير عن الجماع بالغشيان	٢١
التعبير عن كل من الرجل والمرأة باللباس	٢٢
التعبير عن النساء بالحرث	٢٣
التعبير في وصف العلاقة الزوجية	٢٤
المبحث الثاني : في أحوال الإنسان الخاصة	٢٦
التعبير عن الحدث بالغائط	٢٧
التعبير عن الحدث بأكل الطعام	٢٨
التعبير بقضاء التفث	٢٩
التعبير عن السوأة بالفرج	٣٠
المبحث الثالث : في الأمور التعاملية	٣١
التعبير عن الدعوة إلى الإنفاق	٣٢

الموضـــــــوع	الصفحة
التعبير عن إعطاء مهور النساء	٣٣
التعبير عن الإنفاق على السفهاء	٣٤
التعبير عن امتحان اليتامى	٣٥
التعبير عن رعاية اليتامى	٣٦
التعبير عن معاشرة النساء بالمعروف	٣٧
التعبير عن الإحسان إلى الوالدين	٣٨
الفصل الثاني : اللطف في التعبير في الخطاب التأديبي	٤٠ ــ ٨٠
المبحث الأول : في الدعاء	٤١
دعاء المتقين	٤٣
دعاء عيسى (عليه السلام)	٤٤
دعاء إبراهيم (عليه السلام)	٤٥
دعاء أيوب (عليه السلام)	٤٦
دعاء زكريا (عليه السلام)	٤٧
دعاء موسى (عليه السلام)	٤٩
دعاء امرأة فرعون (عليها السلام)	٥٠
المبحث الثاني : في خطاب الله أنبياءه وأولياءه	٥١
خطاب الله لرسوله (صلى الله عليه وآله)	٥٣
وصف لينه (صلى الله عليه وآله)	٥٣
تصبيره وتسليته (صلى الله عليه وآله)	٥٤
إكرامه ورعايته (صلى الله عليه وآله)	٥٥
خطاب الله لأهل البيت (عليهم السلام)	٥٦
خطاب الله لموسى (عليه السلام)	٥٧
المبحث الثالث : في خطاب الأنبياء أقوامهم	٥٩
خطاب موسى (عليه السلام)	٦١
خطاب نوح (عليه السلام)	٦٢
خطاب هود (عليه السلام)	٦٣
خطاب صالح (عليه السلام)	٦٤
خطاب شعيب (عليه السلام)	٦٦

الموضـــــــوع	الصفحة
المبحث الرابع : خطابات أخرى	٦٧
خطاب هابيل (عليه السلام) لقابيل	٦٨
خطاب نوح (عليه السلام) لابنه	٦٩
خطاب يوسف (عليه السلام) للعزيز وامرأته	٧٠
خطاب يوسف (عليه السلام) لصاحبي السجن	٧١
خطاب يوسف (عليه السلام) وإخوته	٧٢
خطاب عيسى لأمه مريم (عليهما السلام)	٧٤
خطاب إبراهيم (عليه السلام)	٧٦
خطاب هارون لموسى (عليهما السلام)	٧٧
خطاب امرأة فرعون (عليها السلام) لفرعون وملئه	٧٨
خطاب إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)	٧٩
الفصل الثالث : بين شدة الخطاب ولينه في الخطاب الدنيوي والأخروي	٨١-١١٣
المبحث الأول : في الخطاب الدنيوي	٨٣
شدة الخطاب للمؤمنين ولينه لهم	٨٤
شدة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين	٨٦
شدة الخطاب للناس ولينه لهم	٩٠
شدة الخطاب ولينه في الترهيب والترغيب	٩٣
شدة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين في سكرات الموت	٩٦
في طرح المثل	٩٩
المبحث الثاني : في الخطاب الأخروي	١٠٣
شدة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين	١٠٤
شدة الخطاب بين أصحاب النار ولينه بين أصحاب الجنة	١٠٧
شدة الخطاب من أصحاب الجنة لأصحاب النار ولينه بعكسه	١١٠
شدة خطاب أصحاب الأعراف لأصحاب النار ولينه لأصحاب الجنة	١١١
الخاتمة (خلاصة بأهم نتائج البحث)	١١٤
مصادر الدراسة	١١٨
ملخص باللغة الإنكليزية	

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله الذي لا إله إلا هو العليّ العظيم ، حمداً يليق بجلاله وكماله وعظيم سلطانه ، وأتمّ الصلاة وأزكى السلام على أشرف الخلق أجمعين من الأولين والآخرين محمد رسول الله الأمين وآله الطيبين الطاهرين ، أهل التقوى وكهف الورى والحجّة على أهل الدنيا والآخرة .

وبعد فالقرآن الكريم كتاب الله العظيم ، ورسالته إلى خلقه بلسان عربيّ مبين ، والمعجزة الخالدة المُنزلة على رسول الله محمّد (صلى الله عليه وآله) ، والدليل الصادق القاطع على رسالته ونبوّته ، والكلام الربّانيّ الذي جاء بأعلى مراتب الكلام في فصاحته وبلاغته وتأثيره . ودراسته شرف عظيم ، ونعمة كبيرة يمن الله بها على من يشاء من عباده . وقد اقترح عليّ أستاذي المشرف موضوع : (اللطف في التعبير في الخطاب القرآنيّ) بعد أن تجلى له أن هذا الموضوع يستحق الدراسة ، ويمكن أن تشكّل دراسته علامة مهمّة تخدم هذه اللغة القرآنيّة الخالدة ، فوقع الاختيار على هذا الموضوع عنواناً لهذه الدراسة ، وقد كان الأستاذ المشرف دقيقاً في انتقائه هذا الموضوع الذي يتناسب مع ميول الباحث اللغوية والأدبية فجزاه الله عني خير الجزاء ، وقد كانت الغاية من هذه الدراسة هي الوقوف عند موضوع اللطف في التعبير ، والتعرف والكشف عن الأساليب التعبيريّة العديدة والمتنوعة التي تصبّ في موضوع اللطف في الخطاب القرآني .

لقد واجهت الباحث في مسيرة بحثه كثير من المعاناة والصعاب ، وقد تمثلت بعض هذه المعاناة في استقراء النص القرآنيّ ، وذلك لغرض استخراج المادة الأوليّة لموضوع البحث ، لذلك قام الباحث بعد التوكل على الله باستقراء النص القرآنيّ بأكمله واستخراج ما يمكن استخراجه ممّا يتعلق بموضوع البحث ، وتمثلت بعض هذه المعاناة

في صعوبة الحصول على مصادر الدراسة ، وتواجُد بعضها في أماكن أخرى ممّا اضطر الباحث إلى السفر إلى مكتبات الجامعات العراقية لغرض الحصول عليها ، زيادة على ما ذكر فإن موضوع البحث يستدعي جهداً في التأمّل والتدبّر وإعمال الذوق والحس لكونه من الموضوعات التي تحمل بعداً أدبيّاً وجماليّاً مما يتطلب ذلك .

قسّمت هذه الدراسة على ثلاثة فصول يسبقها تمهيد يكشف عن موضوع البحث وماهيته ، فأمّا الفصل الأوّل فقد وُزّعت موضوعاته على ثلاثة مباحث كان الأول بعنوان: (في مجال الاتصال والعلاقات الزوجية) ، وحمل الثاني عنوان : (في أحوال الإنسان الخاصة) ، أمّا الثالث فقد تضمن دراسة اللطف في ما يتعلق بالتعاملات بين أفراد المجتمع ، أمّا الفصل الثاني الموسوم بـــ : (اللطف في التعبير في الخطاب التأدبيّ) فقد تضمن دراسة اللطف في التعبير من خلال التأدّب في الخطاب وذلك بوصف التأدّب من الروافد التي تصب وتجري في موضوع لطف التعبير، ويقع هذا الفصل في أربعة مباحث ، أمّا الفصل الثالث الموسوم بـــ : (بين شدة الخطاب ولينه في الخطاب الدنيوي والأخروي) فقد تضمن دراسة مقارنة بين شدة الخطاب من جهة ولينه ولطفه من جهة أخرى ، وذلك بهدف الكشف والتعرّف بصورة أكثر على اللطف في التعبير من خلال المقارنة بين الاثنين ويقع هذا الفصل في مبحثين .

لقد كانت كتب تفسير القرآن الكريم من أهم المصادر التي نهلت منها هذه الدراسة ، ومنها تفسير : (الكشاف) للزمخشري (ت ٥٢٨ هـــ) ، (مجمع البيان) للشيخ الطبرسيّ (ت ٥٤٨ هـــ) ، وتفسير : (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود (ت ٩٥١ هـــ) ، وتفسير : (الميزان) للسيد الطباطبائيّ ، وتفسير : (في ظلال القرآن) لسيّد قطب ، وتفسير : (الأمثل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ ، زيادة على ذلك المؤلفات التي تعنى بدراسة الإعجاز القرآنيّ ، ومنها كتاب : (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للشيخ مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦ هـــ) ، وكتاب : (الإعجاز الفنيّ في القرآن) لعمر السلامي ، والمؤلفات التي تهتمّ بالوقوف عند خصائص الإبداع والبيان والبلاغة في التعبير القرآنيّ ، مثل كتاب : (خصائص التعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة) للدكتور عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، وكتاب :(خطرات في اللغة القرآنيّة) للدكتور فاخر الياسري ، وكتاب : (من بلاغة القرآن) للدكتور أحمد بدوي ، وكتاب (لمسات بيانيّة في نصوص من التنزيل) للدكتور فاضل السامرائي ، زدْ على ذلك الكتب التي تختص بدراسة الخطاب القرآنيّ ، مثل كتاب : (خطاب الأنبياء في القرآن الكريم) للدكتور عبد الصمد عبد الله ، وكتاب : (تحفة البيان في خطاب القرآن لأهل الإيمان) للشيخ عليّ حيدر المؤيّد ، كما أفادت الدراسة

العسل) لحبيب بدرا ، وكتاب : (الإسلام والحياة الجنسيّة) لمحمود بن الشريف ، وكتاب : (الحبّ في العلاقات الزوجيّة) لمحمود الموسوي ، والقائمة تطول .

وأخيرا فإنّ هذا جهد متواضع في هذه الدراسة القرآنيّة ، ولا أدري مدى فوزي أو فلاحي فيه ، وهي خطوة أولى على طريق تحصيل العلم فإنْ أصبت فما توفيقي إلا بالله وإلا فحسبي أني طالب علم أصيب وأخطئ ، ولكني اطمئن إلى أنني بذلت في هذا البحث قصارى جهدي وقد عملت بجدّ وإخلاص والله وليّ التوفيق والحمد لله ربّ العالمين .

التمهيد

التمهيـــد

اللُّطف في الخطاب القرآنيّ واحدٌ من أبرز الأساليب التعبيريّة الكامنة في النص القرآنيّ سواء أكان ذلك على مستوى المفردات أم التراكيب ، وقد كان القرآن الكريم متفرداً مبدعاً في استعماله أسلوب اللطف ، فالله تعالى ذكره ــ وهو اللطيف الخبير ــ قد جعل كتابه زاخراً باللطف بأبعاده التعبيريّة المتعددة ، وهذا نابع من لطف الله عزّ وجلّ ورفقه بعباده ، ومن ينظر في الآيات القرآنيّة المباركة ويتأمّلها يجد فيها صوراً وأساليبَ في غاية الروعة في لطف الخطاب .

إن المقصد من الخطاب في هذه الدراسة هو الخطاب الذي يوجه بصورة مقصودة من جهة إلى جهة أخرى ، كالخطاب الذي يكون موجهاً من الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه (عليهم السلام) أو الذي يكون موجها لسائر البشر أو الذي يجري بين شخصين أو غير ذلك من أنواع الخطابات الكثيرة والمتنوعة ، فليس المقصود من الخطاب في هذا البحث بنية النص اللغوي القرآني انما الخطاب الموجه ، وسنحاول الوقوف من خلاله على اللطف في تعبير القرآن الكريم .

ولمعرفة معنى اللطف لابد من الوقوف عند المعنى اللغويّ والمعنى الاصطلاحيّ للطف .

فاللطّف في اللغة يعني الرفق ويدلّ على صغر الشيء ، وهو الرفق في العمل ، يقال لطيف بعباده أي رؤوف رفيق[1] . واللطف اسم من اللطافة على صيغة (فُعْل)[2] . ويقال (لطفتُ بفلان ، أي رَفقت به ، وأنا ألطف به إذا أريته مَوّدة ورفقاً في المُعاملة ... وألطفت في المسألة إذا سَألت سؤالاً لطيفاً ... وتَلاطفوا أي تواصلوا)[3] .

وأما في الاصطلاح فقد عُرّف مصطلح لطف التعبير أنّه : ((استعمال مجاز ملطف في مكان كلمة أوعبارة موجعة أو بغيضة . مثال: لفظ أنفاسه الأخيرة ، بدلاً من :مات ، أو بيت الأدب ، بدلاً من : المرحاض))[4] ، وهو أن يُستبدل تعبير لا يسرّ بآخر أكثر منه قبولاً [5]. وصرح بعض الدارسين أنّ في جميع اللغات حساسية تجاه ألفاظ معينـــة

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة : ابن فارس : ٥ / ٢٥٠ (لطف) .
(٢) ينظر : ديوان الأدب : الفارابي : ٨٩ (لطف) .
(٣) أساس البلاغة : الزمخشري : ٦٧٤ (لــطف) .
(٤) معجم المصطلحات اللغوية والأدبية : علية عزت عياد : ٤٧ .
(٥) ينظر : معجم علم اللغة النظري : محمد علي الخولي : ٨٨ .

ترتبط ببعض المعاني التي لا يُستحسن أن يُعبّر عنها صراحة ، فيتجنّب هذه الألفاظ وتستبدل بألفاظ أخرى أقل منها تصريحاً ، ويتم وصف اللفظ الذي فضّل بأنه من قبيل التلطف في التعبير[1] . إنّ هذه التعريفات تعطي صورة عن موضوع اللطف ولكنها ليس صورة كاملة ، لأنها بنظرنا عالجت جانباً واحداً من جوانب اللطف وهو جانب التهذيب والعفة وعدم التصريح بما يمس ، ونستطيع أن نقول إنّ اللطف اسم جامع لكل ما يدل على العفة والتهذب والكياسة والتأدب والحسن واللين في التعبير وما يماثل هذا ، ويظهر هذا جليّـــا في الخطاب القرآني .

ومن المهمّ أن نشير إلى أنّ لهذا الموضوع ــ اللطف ــ أصلا وأساساً في كتاب الله الكريم ، ويظهر هذا في قصة أصحاب الكهف (عليهم السلام) وذلك حينما بعثهم الله تعالى ليتساءلوا بينهم فرأوا حينئذٍ أن يبعثوا أحدهم إلى المدينة لينظر أزكى الطعام ويأتيهم برزق منه وأمروه بالتلطف وذلك في قوله تعالى { وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا }[2] .

فإنّ هذه الكلمة مشتقة من اللطف . وإن من المفسرين من أشار إلى معنى قوله تعالى { وَلْيَتَلَطَّف } يشير إلى الرفق في السؤال[3] أي يلجأ للترفق كي لا يُفطن إليه[4] وقيل أن المعنى ((وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن))[5] ، وقيل يلجأ إلى اللطف في شرائه من غير مماكسة البائع أو منازعته [6] . وكل ما ذكر من هذه المعاني لهذه اللفظة القرآنيّة يدل ويفصح عن معنى اللطف .

إنّ الأسلوب القرآني مبنيّ بتعبيره على اللطـــف في الخطاب ، ويظهر هذا بجلاء فـــي

---

(١) ينظر : علم الدلالة : أحمد مختار عمر : ٢٢٨ .
(٢) سورة الكهف : ١٩ .
(٣) ينظر : تفسير السمرقندي : السمرقندي : ٢ / ٣٤٢ .
(٤) ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان : مقاتل بن سليمان : ٢ / ٢٨٤ .
(٥) تفسير البيضاوي : البيضاوي : ٣ / ٤٨٥ .
(٦) ينظر : مجمع البيان : الطبرسيّ : ٦ / ١٧٧ .

كل مفصل من مفاصل القرآن الكريم ، فهو كتاب غايته تهذيبيّة وتأديبيّة بالدرجة الأولى وعليه يُعوّل في تغيير النفوس وصقلها على الخلق الحسن ، وأنه يسعى إلى تغيير واقع المجتمعات الإنسانيّة بشكل ينسجم مع الطبيعة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان ، فلذلك نجد أنّ القرآن الكريم لم يترك مجالاً يتعلق بحياة الإنسان من قريب او بعيد إلا وله بصمة تعبيريّة تفيض لطفاً وأدباً ورقة ! فعلى مستوى العلاقـــة الجنسيـــة يتجلى لطف الخطاب وأدبه في هذا الجانب بترفعه عن الألفاظ التي تصرح عن العملية الجنسية ، فهو يشير إليها إشارات كنائيّة لطيفة خفيّة تنأى بفكر المتلقي عن التصريح فيكون القرآن مكتفياً بالتلميح والإشارة بألفاظ في غاية العفة والحشمة ، فينتقي القرآن ألفاظاً ذات أبعاد نفسية ليس فيها خدش للحياء أو مسّ للشعور ، فلم يشهد توغلاً في تفاصيل العلاقة الجنسية والتصريح عنها إنما يكتفي بإشارات مفهومة وكأنه يحاول أن يضع شفرة أسلوبية يفهمها بنو الإنسان وهذا غاية ما يسعى إليه .

وعلى مستوى الحديث عن العلاقة الزوجية فإنّ التعبير القرآنيّ يشهد لغة عالية في مضامينها بإشارات لطيفة إلى مفاهيم هذه العلاقة ، فجاءت الألفاظ والتعابير التي تخاطب الزوجين تشعر بالحميمية والسكينة والترابط والمحبة وغير ذلك .

ومادام الخطاب القرآني بتعابيره الغنيّة بالمعاني موجّهاً إلى بناء المجتمع الإنساني فإن الجانب التهذيبي له لوازمه التي لا غنى للإنسان عنها فيما يتعلق بأحوال الإنسان الخاصّة ومقتضيات طبيعته البايلوجية ، فإن القرآن الكريم تكفل بتوجيه الإنسان والارتقاء به إلى ما يناسب كرامته وقدسيته ، فشرع بانتقاء ألفاظه على أساس من الحشمة والعفة والوقار مما يناسب اللطف في تعبيره .

ويبقى القرآن الكريم موجّهاً خطابه إلى الإنسان ولكن في هذه المرة إلى طبيعة علاقاته التعاملية كإنفاق الأموال ، وعلاقته بوالديه ، والرفق بالأيتام وغير ذلك من الأمور التي غالباً ما يكون الأسلوب فيها مشحوناً بالحث على الفعل وعدمه أو بتعبير آخر بين الأمر والنهي ، والذي يلحظ أن القرآن الكريم قد أولى هذا الجانب عناية تستدعي الوقوف عندها والتأمل في بديع لطفها ، لأن الأمر بطبيعته ثقيل على النفس وكذلك النهي والقرآن بين هذا وذاك يحاول أن يُدغدغ المشاعر ويثير النفوس ويستميلها ويرغبها إلى تقبل أوامره ونواهيه فكان بذلك غاية في لطفه ورقته .

ومن الجوانب التي يظهر ويتجلى فيها اللطف في التعبير التأدّب في الخطاب ، وهو عالم فريد في بابه ، فهو لا يترك مجالاً الا وله بصمة تشعّ لطفاً وحنوّاً ورفقاً ، والمجالات التي تتعلق بهذا الجانب عديدة ومتنوعة في تعبير القرآن الكريم ! ولعلّ أسلوب الدعاء من المجالات البارزة في هذا الجانب وله عدة صور يوردها التعبير القرآني ، وهو إمّا أن يكون موجهاً من أنبياء الله وأوليائه (عليهم السلام) أو من عباده المتقين ، فغالباً ما تكون تلك الأدعية في منتهى التأدب ؛ بما تتخلله من خضوع وتواضع ويقين وتذلل وغير ذلك من أصحاب الدعاء إلى الله جل وعلا ، ولكل من تلك الأدعية القرآنية بصمة إبداعية ولطافة في أسلوبها وفق ما يقتضيه الموقف لمقام الداعي .

ويبرز خطاب الباري تبارك وتعالى الموجه إلى الأنبياء والأولياء (عليهم السلام) بأدبيته العالية ؛ إذ يأخذ طابعاً خاصاً تكون فيه سمة اللطف هي العنوان الأبرز لكلّ أنواع الخطابات الربانيّة ، إذ تأتي تلك الخطابات مكسوّة بطابع الإكرام والتأييد والتسلية والرعاية وما يماثل هذا مما يتناسب مع اللطف في خطاب الخالق الكريم .

ويلحظ أنّ الخطاب الصادر من الأنبياء (عليهم السلام) ــ سواء أكان ذلك الخطاب إلى أقوامهم أم إلى غيرهم ــ أنّه يجيء على قدر كبير من التأدب ، فهذا النوع من الخطاب لطيف رقيق؛ فغالباً ما يكون مملوءاً بالعطف والنصح والشفقة وترغيب المخاطبين واللجوء إلى المجادلة بالتي هي أحسن مهما تصل درجة الغلظة والجفاء لدى الأقوام .

وهناك خطابات أخرى من الأنبياء (عليهم السلام) توجه إلى من تربطهم به آصرة من أواصر القرابة ، وهذه الخطابات تصبّ في أغراض مختلفة ، ولكلّ منها بصمة من بصمات التعبير القرآني اللطيفة . وتجدر الإشارة إلى أنّ التعبير القرآني يضمّ أنواعاً أخرى من الخطاب غير ما ذكر يكون فيها التأدب الرافد الأبرز في الإيحاء والبوح بمكامن اللطف في التعبير .

إنّ القرآن الكريم يتفنّن في استعمال الأساليب التعبيريّة ، وهو في هذا الصدد يختلف في أسلوبه بين كل من الشدة واللين في الخطاب ، وذلك حسب ما يقتضيه السياق والحالة وأصناف المخاطبين ، فالتعبير القرآني يشتدّ ويقسو في مواطن ويلين ويلطف

في مواطن أخرى ، وللقرآن في هذا الصدد صور عديدة وأساليب متنوعة . إن هذين الأسلوبين ــ الشدة واللين ــ يُظهر ويُبَرّز كلّ منهما الآخر ، بذا من خلال الوقوف عندهما والمقارنة بينهما يتم الكشف والتعرف بصورة أكثر على اللطف في التعبير ، فالأشياء كما هو معروف تعرف بأضدادها ، إنّ التعبير القرآني أبدع في مجال شدة الخطاب ، وقد صنع الشيء نفسه في لينه وله في ذلك أمثلة فريدة ورائعة .

الفصل الأوّل

التّعبير في مجال الاتصال والعلاقات الزوجيّة والأحوال الخاصة والأُمور التعامليّة :

المبحث الأوّل : في مجال الاتصال والعلاقات الزوجيّة

المبحث الثاني : في أحوال الإنسان الخاصة .

المبحث الثالث : في الأمور التعامليّة .

القرآن الكريم اتخذ مسلكاً بيانياً في التعبير عن القضايا التي فيها مسّ أو يستقبح ذكرها ، وذلك في مجال الاتصال الجنسي والعلاقات الزوجية ، ففي مجال الاتصال يلحظ أنّ القرآن ينأى عن التعبير بطريقة مباشرة ويلجأ إلى استعمال الكناية . فقد أتى القرآن الكريم بالكناية عن العملية الجنسية في جميع آياته التي تتحدث عن هذا الموضوع ، ولمْ يصرّح بها أبداً ، حفظاً للأدب ومراعاة للنصوص ترفعاً عن الفحش في القول[1] . ويعدّ هذا من قبيل اللطف في التعبير في خطاب القرآن الكريم .

((وتكثر كلمات التلطف .. في التعبير عن العلاقة الجنسية حتى تكاد تحظى هذه العلاقة بنصيب الأسد))[2] ، ومن دقة لطافة القرآن في هذا الجانب أنه يعمد إلى التنوع في استعمال الألفاظ المعبّرة عن الجماع من دون التركيز على لفظ معيّن ، إذ ينتقل في تعبيره بين الرفث والمباشرة والقرب والإتيان والدخول والمسّ والإفضاء واللمس وغير ذلك من الألفاظ الأخرى ، لئلا يرسخ ذلك عند المخاطبين .

إنّ ما يتسم به القرآن من سموّ ، وعفة أسلوب ، وبراعة إشارة ، وكرم توجيه يبدو ظاهراً في تعبيره عن اللقاء الجنسي بلفظ المباشرة حيناً والملامسة حيناً آخر وغير ذلك ، والذي يتتبع هذه الآيات وما يماثلها يجد أنّ سمتها الإشارة والتلميح ، أو يجدها في غلالة في لفظ رقيق ، أو أنها صُبّت في قالب جميل من الكناية[3] .

وفي مجال العلاقات الزوجية كان القرآن في غاية اللطف في تعبيره عن هذه الأمور ، ونظراً لأهمية هذه الأمور في الحياة ، وارتباطها وتعلقها بعواطف الإنسان ومشاعره وأحاسيسه لجأ القرآن إلى استعمال أوحى التعابير وأجملها وأكثرها دقة وتأثيراً .

وأمّا ما يتعلق بأحوال الجسم فإنّ هذه الأمور تتسم بالفضاضة أو يتحرج ذكرها ، ويمجها المجتمع ، ويعافها الذوق ، وقدْ كان للقرآن الكريم شأنٌ خاصٌ في تعبيره عن مثل هذه الأمور ، متفرداً متألقاً في ذلك ، إذ يبتعد عن التصريح في تعبيره عن هذه الأمور ويستعمل بذلك الأساليب غير المباشرة تناسباً مع لطف القرآن الكريم في خطاباته .

---

(١) ينظر : دلالة الألفاظ : د. إبراهيم أنيس : ١٤٢ .
(٢) علم الدلالة : ٢٦٦ .

فالقرآن الكريم لا يلجأ في تعبيره عن هذه الأمور إلى التصريح واستعمال الألفاظ والعبارات المكشوفة ؛ لأن هذا لا ينسجم ــ بطبيعة الحال ــ مع ما للقرآن من أدب عال وعفة ورقي ، لأن هذه الأمور التي تتعلق بأحوال الإنسان الخاصة تسبب الحياء والخجل ، وانطلاقاً من هذا فقد أبدع القرآن في عرضه لهذه الأمور من خلال الإشارة لها بأكثر التعابير لطفاً وأدباً .

وقد كان للقرآن أسلوبٌ لطيفٌ رقيقٌ في الحديث عن الأمور التعاملية ، ومن المعروف أن هذه الأمور ذات أهمية بالغة في المجتمع الإسلاميّ ، لأن التعامل هو أساس من أساسيات الحياة ، والقرآن الكريم لم يترك أصغر التفاصيل وأدقها إلا وأولاها عناية واهتماماً من خلال تعبيره اللطيف فكيف بمثل هذه الأمور بما تحمله من أهمية كبيرة؟ لذا استعمل القرآن في تعبيره عن هذه الأمور أروع الأساليب وأجملها وأكثرها إقناعاً وترغيباً وتأثيراً في المخاطبين .

هذا وقد بني هذا الفصل على ثلاثة مباحث سوف أقوم بدراسة كل مبحث على حدةٍ .

المبحث الأوّل

في مجال الاتصال والعلاقات الزوجيّة

التعبير عن الجماع بالرفث :

الرفث في اللغة يعني قول الفحش والكلام البذيء[1] . وتوسع استعمال هذا اللفظ فأصبح يطلق به على الجماع[2] .قال تعالى : { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ }[3] .

فالقرآن الكريم استعمل التعبير بالرفث كناية عن الشيء الذي يُستقبح ذكره وهو الجماع[4] . لأنه فيما يتعلق بمباشرة النساء يلجأ إلى التعفف في خطابه إكراماً للإنسانية عن الألفاظ الواهنة[5] . وهذا من طبع لغة القرآن المائلة لاستعمال الكلمة المهذبة ، وفي الأخص عند ورود الآيات التي توضح علاقة الرجل بالمرأة ، فتبتعد عن التصريح بما هو قبيح ؛ لأنه يُسبب خدشاً لجمال أسلوب القرآن ورقته [6] . وهذا نابعٌ من أدب القرآن ولطفه .

إنّ القرآن الكريم استعمل التعبير بـــ (الرَّفث) مع أنه يدلّ في أصل معناه على قول الفحش وهو في أثناء مروره بهذا الموضع يضفي طابعاً تعبيرياً جميلاً . وتبين جمالية هذا التعبير على الرغم من أنّ لفظة الرفث تدلّ في أصل معناها على قول الفحش من تعديتها بحرف الجر (إلى) ، فإنها في تعديتها بحرف الجرّ (إلى) انتقلت إلى دلالة جديدة منحتها بُعداً تهذيبياً مع حصول المقصود ، فقد شملت هذه اللفظة كلا المعنيين الكنائي والصريح[7] . وهنا تكمن روعة التعبير اللطيف في تراكم دلائله في هذه الأمور الزوجية .

والملحوظ أن لفظة القرآن لا يمكن أنْ تستبدل بأيّ لفظة أخرى ، فهي قدْ اختيرت من بين مجموعة من الألفاظ إما لدقة معنى الجملة ، أو لاتسام اللفظة المختارة برشاقة أو جزالة أو سلاسة أو غير ذلك ، مـــع ملاحظة اتسامهـــا الدقيق بذلك ، وهذا حـــال

---

(١) ينظر : العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٨/ ٢٢٠ (رفث)
(٢) ينظر : لسان العرب : ابن منظور : ٣ / ١٦٨٦ (رفث) ، والتدبّر في القرآن : السيد محمد رضا الشيرازي : ٢/ ٤٧٣ .
(٣) البقـــرة : ١٨٧ .
(٤) ينظر : الميزان : السيد محمد حسين الطباطبائي : ٢ / ٢٠٨ ، وآداب ليالي الزفاف وشهر العسل : حبيب بدرا : ٣٧٠ .
(٥) ينظر : مواهب الرحمن : السيد عبد الأعلى السبزواري : ٣/ ٨٩ ــ ٩٠ .
(٦) ينظر : التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآنيّ : جنان منصور كاظم (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة بغداد : ٨٢ .
(٧) ينظر : لسان العرب : ٣/ ١٦٨٦ (رفث) ، والكناية في القرآن الكريم : أحمد فتحي رمضان (إطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة بغداد : ٧٨ .

لفظـــة (الرفث) لمناسبتها الدقيقـــة للمعنى العام للآيـــة ، فما يناسب النفس في أثنـــاء الهمس في الأذن في حالة الجماع هو لفظ يحوي في طياته حقيقة ذلك الهمس[١] . وهذا ما جعل التعبير بالرفث يزداد روعة وتفرداً وجمالاً .

وعند النظر في التركيبة الصوتية للفظة الـــ (رفث) . نجد أنّ الفاء والثاء من أصوات الإخفاء[٢] . والمعنى الذي نستجليه من هذا هو التناسب الكبير بين هذا الإخفاء الصوتي وبين الأجواء التي تتمّ فيها عمليّة الجماع حيث الخفاء والتستر ، وكأنّ هذا التعبير يشير بأسلوب خفي إلى جوّ خفي تتم في رحابه العملية الجنسية ، فما أعفّ هذا التعبير وألطف دلالته .

التعبير عن الجماع بالمباشرة :

قال جلّ وعزّ : { فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ }[٣] .

انّ لفظ المباشرة كناية عن الجماع[٤] . فمعنى مباشرة الرجل لامرأته كونه معها في ثوب واحد[٥] . وسمي الجماع بالمباشرة لمس البشرة بالبشرة أي ظاهر الجلد[٦] . فالقرآن الكريم انطلاقاً من لطف التعبير تحاشى التصريح بلفظ الجماع الذي يمسّ حياء الإنسان ، واستعمل التعبير عنه بلفظ المباشرة الذي لا يعافه الذوق ولا يمجّه .

ولمّا كان للجماع من التصاق بشرة الرجل ببشرة المرأة كنّي بالمباشرة عن الجماع لما بينهما من علاقة[٧] . ويستجلى من هذا معنى في منتهى الجمال والروعة ، وذلك أنّ هذا الالتصاق يؤدي ــ بطبيعة الحال ــ إلى سيادة أجواء الحبّ والمودة والعطف وغير هذا بين الزوجين ، وبتعبير آخرَ يؤدي إلى السعادة والهناء في الحياة الزوجية .

---

(١) ينظر : *الإعجاز الفني في القرآن* : عمر السلامي : ٧٥ ــ ٧٦ .
(٢) ينظر : التجويد وعلوم القرآن : عبد البديع صقر : ١٤٢ ، وقواعد التجويد والإلقاء الصوتي : جلال الحنفي البغدادي : ١٦١ ــ ١٦٢ ، والوافي في كيفية ترتيل القرآن الكريم : أحمد محمود : ٣٦ .
(٣) البقـــرة : ١٨٧ .
(٤) ينظر : تفسير الصافي : الفيض الكاشاني : ١ / ٢٢٤ .
(٥) ينظر : تاج العروس : السيد محمد مرتضى الزبيدي : ٣ / ٤٦ (بشر) .
(٦) ينظر : لسان العرب : ١/ ٢٧٨ (بشر) ، ومجمع البحرين : فخر الدين الطريحي : ٢ / ١٣٨ (بشر) .
(٧) ينظر : البرهان في علوم القرآن : الزركشي : ٢ / ٣١٦ .

نجد في التعبير بقوله تعالى : { بَاشِرُوهُنَّ } أن الفعل (باشر) جاء على صيغة (فاعل) . وهذه الصيغة تعطي معنى المشاركة في حصول الفعل[1] . إنّ هذا يدل على اشتراك كل من الزوجين (الرجل والمرأة) في أداء هذه العلاقة الحميمة ، إذ إنّ كلاً منهما يكون في منتهى الميول والرغبة في ممارسة العلاقة الجنسية مع الطرف الآخر ، وانطلاقاً من هذا فإن التعبير يحمل في طياته إثارة للمسرة والسعادة إلى نفوس المخاطبين ، لأنّ هذا المعنى يدل على التوافق والتلاؤم والانسجام بين الزوجين .

والتعبير في الوقت نفسه يتضمن إشارة إلى المخاطبين بأنّ السعادة والهناء في العيش في هذه الحياة تتم من خلال المشاركة والمعاونة والمساعدة بين الزوجين لا بخلاف ذلك ، لأن العلاقة الجنسية جزء من الحياة بين الزوجين .

يبدو لنا أنّ قوله تعالى : { بَاشِرُوهُنَّ } يشير بدلالته الصوتية إلى ضرورة إطالة مدّة الجماع والتمهل والتروي في أداء هذه العلاقة ، ونستمدّ هذه الدلالة من وجود صوتين من أصوات المدّ : (الألف ، والواو) فأنّ لكل صوت دلالة في تعبير القرآن ، وقد أشارت الأحاديث الشريفة إلى ضرورة هذه الإطالة ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : ((إذا جامع أحدكم فلا يأتيهنّ كما يأتي الطير ، وليمكث وليلبث قال بعضهم : وليتلبث))[2] ، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليهما السلام) : ((إذا أراد أحدكم أن يأتي أهله فلا يعاجلنّها وليمكث يكن منها مثل الذي يكون منه))[3] ، وربّ سائل يسأل : ما علاقة إطالة مدّة الجماع بلطف التعبير ؟ وجواب هذا أنّ هذه الإطالة تؤدي إلى ذروة العلاقة الجنسية التي بدورها تؤدي إلى زيادة عشق الزوجين ومودتهما بعضهما ببعض ، وبذا أشار التعبير بهذا المعنى المؤثر الرائع .

ثم إنّ الإشارة إلى ضرورة هذه الإطالة بهذه الكيفية ــ بوجود صوتي مدّ ــ يعدّ في قمة الحشمة والتستر والأدب ، ممّا يليق بلطف خطاب القرآن .

---

(١) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب : رضي الدين الاستراباذي : ٣ / ٩٦ .
(٢) فروع الكافي: الشيخ الكليني : ٥ / ٨٧٧ ، و تذكره الفقهاء : العلامة الحلي : ٢ / ٥٧٦ .
(٣) تحف العقول عن آل الرسول : الشيخ الحرّاني : ١٤٥ .

التعبير عن الجماع بالقرب :

القرب في الأصل اللغوي يقابل البعد[1] . ومعنى قــرب (قرباً وقرباناً) أي تدانى فأصبح قريبا[2] . واستعمل القرآن لفظ القرب كناية عن الجماع[3] . قال تعالى : { وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ }[4] ، فقرب النساء يعني مجامعتهنّ في لغة القرآن الكريم[5] . وبما أنّ التصريح بلفظ الجماع لا يُعدّ لائقاً ومتناسباً مع جلالة القرآن في خطاباته ، لكون الجماع من الألفاظ المكشوفة التي تخدش شعور الإنسان وحياءه ، لذا جاء التعبير القرآني بقوله سبحانه : { تَقْرَبُوهُن } الذي ينضح عفة وذوقا .

إنّ القرآن الكريم يستعمل في تعبيره ألفاظاً تتماز بالاختيار والانتقاء ، حتى أنّ كلّ لفظة فيه تنزل في منزلة حبّة العقد الوحيدة التي ينقطع نظيرها[6] . الأمر الذي يفصح عن معان جميلة رائعة تكمن وراء هذا الانتقاء ، وقد انتقى القرآن في هذا التعبير لفظ القرب ، إذ نقل اللفظ من أصل معناه الذي هو نقيض البعد إلى معنى الجماع ، والمعنى الذي نستجليه من هذا هو أنّ حصول الجماع يؤدي ــ بطبيعة الحال ــ إلى زيادة المودة والعطف والحنان وما يشبه هذا بين الزوجين ، أي أنه يؤدي إلى تقوية أواصر القرب بين الزوج وزوجته ، فأي تناسب عجيب بين اختيار التعبير بـــ : { تَقْرَبُوهُن } وبين المعنى الذي وضع له .

من هذا المعنى فإنّ هذا التعبيرَ يتوهج بما يتضمن من معنى روعة ودقة وجمالا ، ممّا يلقي بتأثير طيّب على نفوس المخاطبين ومشاعرهم .

---

(١) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٥٦٦ (قرب) .
(٢) ينظر : المصدر نفسه .
(٣) ينظر : الميزان : ٢ / ٢٠٨ .
(٤) البقـــرة : ٢٢٢ .
(٥) ينظر : إصلاح الوجوه والنظائر : الدامغاني : ٣٧٤ ــ ٣٧٥ .
(٦) ينظر : إعجاز القرآن البيانيّ بين النظرية والتطبيق : د. حنفي محمد شرف : ٢٢٨.

التّعبير عن الجماع بالإتيان :

الإتيان في اللغة يعني المجيء ، يقال (أتيته أتياً وأتيّا وإتياً وإتياناً ...) بمعنى جئت إليه[1] . وجاء الإتيان في تعبير القرآن الكريم كناية عن الجماع[2] . قال تعالى : { فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ }[3] فإنّ الألفاظ التي يُصرّح بها عن الجنس لا تعد مقبولة في العرف الاجتماعي ، لما فيها من إثارة للخجل[4] . لذا جاء القرآن في هذا الموضع بقوله : { فَأْتُوهُنَّ } محدثاً تغييراً في استعمال لفظ الإتيان من الدلالة على معناه الأصلي إلى الدلالة على معنى الجماع . وإن التغيّر في استعمال اللفظ يُعدّ من قبيل حسن التعبير[5] . ((وحسن التعبير وسيلة مقنعة بارعة لتلطيف الكلام وتخفيف وقعه))[6] .

إنّ القرآن الكريم يحرص دائماً على إيراد التعابير الموحية التي تتضمن دلالات تلقي بظلالها تأثيراً طيباً على نفوس المخاطبين ومشاعرهم ، وعند التأمل في قوله سبحانه : { فَأْتُوهُنَّ } نجد أن التعبير يوحي بدلالة التشوق والتلهف والرغبة في ممارسة هذه العلاقة مع الزوجة ، لأن هذا ينسجم مع فعل الإتيان المشتق من الفعل (أتى) لأنّ الذي يأتي ــ بطبيعة الحال ــ تكون له رغبة وشوق في إتيانه .

زيادة على هذا فإنّ هذا الفعل ــ الإتيان ــ يدلّ على الحركة والنشاط ، ويبدو لنا أنّ هذا يشير إلى ما في هذه العلاقة من تودد بين الزوجين وتقبيل وعناق وملاطفة تحدث قبيل ممارسة الجماع تهييئاً لهذا الفعل .

---

(١) ينظر : لسان العرب : ١ / ٢١ (أتى) .
(٢) ينظر : تفسير شبر : السيد عبد الله شبّر : ٤٤ .
(٣) البقـــرة : ٢٢٢ .
(٤) ينظر : العربيّة وفكرة اللامساس : د. علي زوين (بحث في مجلة المورد) ، عدد(٣) ، السنة السادسة والثلاثون ، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م : ١٥ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٤ .
(٦) دلالة الألفاظ العربية وتطورها : مراد كامل : ٢٧ .

لمّا كان للقرآن من أدب عال في التعبير بالإتيان لجأ إلى إتمامه . ومن أجل إتمام الأدب في التعبير بقوله تعالى : { فَأْتُوهُنَّ } قيّد الأمر بالإتيان بقوله سبحانه : { أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ } لأنّ الجماع يعدّ من اللغو واللهو بحسب بادئ النظر ، لذلك قيّد بهذا التعبير ، لأنه لا يجوز أنْ يعدّ من اللهو واللغو ، بل أنه أصل من أصول النواميس التكوينية[1] .

التعبير عن الجماع بالمس :

المسّ : لمسّ الشيء باليد ، وهو ملاقاة الأشياء بعضها ببعض[2] . والقرآن الكريم استعمل المسّ للتعبير عن الجماع بطريق الكناية[3] . قال تعالى : { لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ }[4] ، وهذا من لطف القرآن الكريم في استعماله ، إذ يستعمل الكناية عن ممارسة الجنس بألفاظ تتسم بالرشاقة وتحمل إشارة إلى ما تدلّ عليه ، وتصون لطف التعبير ، وتنأى عن كراهة الأداء بصورة مباشرة لهذه الأمور[5] .

إنّ التعبير بفعل المسّ يتضمن إيحاءً باللين والسلاسة وإفضاء الروح ، فالممارسة التي عبّر عنها تبارك وتعالى بقوله : { تَمَسُّوهُنَّ } ممارسة تتسم بالرشاقة والتأنيّ ، وهي تمثّل الأجواء النفسانية التي يفضي بها حدث المسّ ، ومن الدلالات التي تصحب هذا الاستعمال تبادل الرغبة ، وفي هذا الفعل ــ المسّ ــ إحالة بعدم التهالك على لذة البدن ، في حين تشرق دلالات هذا الفعل على فيض الروح واستثمار المعنى والجمال لأبعاد معاشرة المرأة جنسياً ، وتمثّل الحياة من خلال هذه المعاشرة تمثيلاً يوصل الإنسان إلى الفه وما يوائم تناقضات حياته، وبذا كان التعبير بالمسّ يتسم بروحيته واشراقه زيادة على دلالة المعنى الماديّ له[6] .

---

(١) ينظر : المرأة في القرآن الكريم : السيد الطباطبائي : ٢٩٧ .
(٢) ينظر : لسان العرب : ٦ / ٤٢٠١ (مسّ) ، ومجمع البحرين : ٢ / ٣٩٠ (مسّ).
(٣) ينظر : جامع البيان : الطبري : ٥ / ١١٨ ، ومعاني القرآن : الفراء : ١ / ١٥٥ ، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم : هارون بن موسى القاريء : ١٦٣ .
(٤) البقـــــرة : ٢٣٦ .
(٥) ينظر : الدلالة النفسية للألفاظ في القرآن الكريم : محمد جعفر محيسن (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب ــ جامعة القادسية : ١١٢ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه : ١١٣ .

يستعمل القرآن الألفاظ التي تتسم بجرس موسيقي ناعم ورخي وسلس ، في المواضع التي تكون مفعمة بجو الحياة ذات الهناء والجمال[١] . ويبدو هذا جلياً في هذا التعبير ، فلفظة (تمسوهن) تضمنت ثلاثة أصوات مهموسة . فكل من التاء والسين والهاء أصوات مهموسة[٢] . زيادة على هذا فإنّ صوت الهاء مرقق[٣] . والنون صوت مرقق كذلك[٤] . وقد أسهم كلّ من الهمس والرقة في جعل هذه الكلمة ذات جرس ناعم رقيق سلس ، مما جعلها في غاية الخفة والليونة .

إنّ هذا الجرس الموسيقي للكلمة يتناسب مع المعنى الذي وضعت له الكلمة وهو : (الجماع) وبذا تكون كلمة (تمسوهنّ) ذات وقع معبّر ومؤثر على المخاطبين ، وهذا في منتهى اللطف والإيناس .

التعبير عن الجماع بالإفضاء :

لفظ الإفضاء يدلّ على وسع المكان وانفساحه ، فمعنى فضا المكان وأفضى أي ازداد وسعا[٥] ، واستعمل لفظ الإفضاء في تعبير القرآن للكناية عن الجماع[٦] . وذلك في قوله سبحانه : { وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ }[٧] ، فمعنى تعبير الآية : أي وقدْ أفضى بعضكم إلى بعض بالمجامعة[٨] . وقدْ تلطف القرآن في هذا الخطاب الموجّه للرجال . لأنّ من لطائف الاستعمال اللغوي الكناية بالإفضاء عن المجامعة ، فإنّ هذا الاستعمال أدعى لأدب اجتماع الزوجين ، وأكثر رفعة في الذوق المبتعد عن التصريح بخصوص أمور الجنس[٩] .

---

(١) ينظر : فقه اللغة العربية : د. كاصد ياسر الزبيدي : ١٣٧ .
(٢) ينظر : فقه اللغة : د. علي عبد الواحد وافي : ١٦١ ، وعلم اللغة العام ــ الأصوات : د. كمال محمد بشر : ٨٧ ، ومدخل إلى فقه اللغة العربية : د. أحمد مقدور : ١٨٩ .
(٣) ينظر : الأصوات اللغوية : د. عبد القادر عبد الجليل : ١٦١ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ١٨٣ .
(٥) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٤٣٠ (فضا) .
(٦) ينظر : تبيين القرآن : السيد محمد الحسيني الشيرازي : ٩٢ .
(٧) النســـــاء : ٢١ .
(٨) ينظر : جامع البيان : ٨ / ١٢٥ ــ ١٢٦ .
(٩) ينظر : الجدول في اعراب القرآن : محمود صافي : ٢ / ٤٧٤ .

لقدْ عبّر القرآن بهذا اللفظ ــ الإفضاء ــ تعبيراً موحياً ودقيقاً ، يؤثر في نفوس المخاطبين ، وينفذ حتى أعماقهم . فإنّ الإفضاء لفظ أخذ من الفضاء ، وهو يدلّ في أصله اللغوي على التوسع ، فكأنّ الزوج في مباشرته لزوجته يسعها وهي تسعه إلى أقصى الحدود[١] .

إنّ الفعل (أفضى) يترك اللفظ على إطلاقة من غير مفعول يحدده ، فيقوم بإشعاع جميع ما فيه من معان ، وإلقاء جميع ما فيه من ظلال ، وإكسابه جميع ما فيه من إيحاءات ، وهذا الفعل لا يقتصر على الحدود الجسدية[٢] . بل يشمل ((إفضاء الجسد والروح ... إفضاء النفس للنفس والمشاعر والحبّ بين الزوجين ، فاللقاء الجنسيّ بينهما ليس سوى مجرد فعل عادي لإسكات الشهوة الحلال ... لكن هذا اللقاء الحميم تعبير عن اتحاد الزوجين والارتباط الشديد بينهما كما وصفت الآية الكريمة ، فالزوج يفضي لزوجته والزوجة تفضي لزوجها ، وكل منهما يفضي للآخر))[٣] .

إن هذا التعبير القرآني اختزن كلّ ما في الحياة الزوجية من أمور تربط الزوجين بعضهما ببعض ، زيادة على ما أنتجه من صورة تأدبية أخلاقية تتناسب مع لطف خطاب القرآن في تعبيره عن اللقاء الجنسي .

التعبير عن الجماع بالدخول :

الدخول لفظ مناقض للفظ الخروج[٤] . وجاء الدخول في استعمال القرآن بمعنى الجماع والنكاح[٥] . قال تبارك وتعالى : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ .... ﴾[٦] ، فالقرآن الكريم كنى بلفظ الدخول عن المجامعة[٧] . ((وهذا من باب التعبير بالكناية المهذبة ... فاستعمل

---

(١) ينظر : التفسير الكاشف : محمد جواد مغنية : ٤ / ٢٧٩ .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن : سيد قطب : ٤ / ٢٨٥ .
(٣) فنون في غرفة النوم : محمد السعيد : ٨٩ ــ ٩٠ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٠٩ (دخل) .
(٥) ينظر : جامع البيان : ٨ / ١٤٨ .
(٦) النســـــاء : ٢٣ .

الدخول وأراد لازمه وهو الوطء ، تهذيباً للعبارة ، وصوناً للحُرمات))[1] ، وهذا ينمّ عن لطافة التعبير في هذا الخطاب القرآني . فالقرآن الكريم ترفع عن التصريح بلفظ الجماع وجاء بلفظ عفيف لطيف تناسباً مع الذوق والأدب . وقد جاء حرف البـــاء في قوله تعالى : { دَخَلْتُم بِهِنَّ } للدلالة على التعدية والملامسة[2] . ويظهر من خلال هذا التحول في الدلالة نتيجة دخول حرف الباء على التعبير تلاؤم على ما جاء به السياق الدال على معنى الجماع ، زيادة على ما في التعبير من أدب عال يتضح في عدم التصريح بما يُستنكر ويُخجل من ذكره .

التعبير عن الجماع باللمس :

اللمسُ هو أنْ تدرك شيئاً بالبشرة [3] . وهو أن تلمسَ شيئاً باليد[4] . وقدْ عبرّ القرآن باللمس عن الجماع[5] . سالكاً بذلك طريق الكناية[6]. قال جلّ وعلا :{أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ }[7] إذ أخفى الله سبحانه في هذا التعبير ذكر لفظ الجماع الصريح ودلّ عليه بقوله: { لَـٰمَسْتُمُ } وسبب الاخفاء تجنب اللفظ البشع لذا كنّي بلفظ اللمس عن الجماع[8].تلطفاً في الخطاب ؛ لأنّ التعبير بلفظ اللمس أكثر رقة وحشمة ، وهو من علوّ أدب القرآن الذي يعرضه للناس في كلامه بخصوص هذه الأمور ، حين لا يكون هناك داع للتعبير بألفاظ مكشوفة[9] . لذا إنّ التعبير بالملامسة من جمال الكناية عن مقاربة المرأة جنسياً[10]

---

(١) مجاز القرآن : د. محمد حسين علي الصغير : ٧٤ .
(٢) ينظر : الكشاف : ١ / ٣٨٠ .
(٣) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٧٤٧ (لمس) .
(٤) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٤٠٧٢ (لمس) .
(٥) ينظر : مجمع البيان : ٣ / ٥٧ .
(٦) ينظر : التفسير الكاشف : ٥ / ٣٣٥ .
(٧) النســـــاء : ٤٣ .
(٨) ينظر : فنون بلاغيّة ، البيان والبديع : د. أحمد مطلوب : ٦٥ .
(٩) ينظر : في ظلال القرآن : ٥ / ٢٣ ــ ٢٤ .

عند النظر في (الجانب الصرفي) للفظة لامس نجد أنها جاءت على صيغة (فاعل) أي فاعلتم . إنّ مجيء لامستم على صيغة فاعلتم يدلّ على اشتراك كلا الزوجين في فعل الجماع[1] . إنّ لفظة (لامستم) تشعر صيغتها الصرفيّة بتجاوب النساء مع ما يصدر عن الرجال من فعل اللمس ، إذ لا يخرج مفهوم الملامسة مع هذه اللفظة إلى غير معنى تحرك شهوة كل من الرجل والمرأة . أو اللصوق بينهما بإحساس كما ألمح إلى ذلك صاحب الفروق[2] . فالملامسة إذن تمثل حالة الجماع بين الرجل وامرأته بقصد اللذة بإحساس في المباشرة[3] . وبذا فالتعبير يتضمن إثارة للمسرة والسعادة في نفوس المخاطبين ، لأنّه يشعرهم بالتجاوب وتبادل الرغبة والانسجام في ملامسة النساء .

هذا وقد استعمل القرآن في هذا التعبير لفظ (اللمس) ولمْ يستعمل لفظ (المسّ)الذي دلّ في موضع سبق على المعنى نفسه ــ الجماع ــ فقدْ ((اقتضت الحكمة إبراز الدخول بصيغة المفاعلة .. فقيل لامستم لأنه لو استخدمت مادة المَس لكان اللازم أن يُقال ماسَستم وهو تعبير لا يخلو من سماجة يربأ عنها القرآن الكريم))[4] .

إنّ لفظة (لامستم) اختيرت في هذه العبارة القرآنية لما لها من جزالة ورشاقة ، الأمر الذي يجعلها مناسبة لرقة الملموس ، إنّ لهذه اللفظة قوة ذات خفاء تلمس نفس المتلقي محركة مخيلته لتصور له ما في هذه الملامسة من لحظات ، بكل ما في هذه اللفظة من الرشاقة والجمال وعمق الحس النفسي[5] . وهذا في غاية اللطف .

إذا تكلمنا عن جانب الصوت وعلاقته بالمعنى وجدنا أنّ كتاب الله يصل إلى الغاية في ذلك ، فالقرآن يقوم باختيار الألفاظ على وفق أساس الاتساق الموسيقي مع جوّ الآية والسياق أجمع[6] . وهذا ما يلحظ في التعبير بقوله تعالى :{ لَمَسْتُمُ } فإنها تضمّنت صوتين مهموسين . (فالسين) صوت مهموس[7] . (والتاء) صوت مهموس كذلك[8] .

---

(١) ينظر : معاني القراءات : الأزهري : ١٢٨ .
(٢) ينظر : الفروق في اللغة : أبو هلال العسكريّ : ٤٦٨ .
(٣) ينظر : آلاء الرحمن في تفسير القرآن : علي محمد جواد البلاغي : ١٢٦ .
(٤) الأنظار التفسيرية في تراث المرجع الديني الكبير الشهيد محمد الصدر : ٣٧٨ .
(٥) ينظر : الاعجاز الفنيّ في القرآن : ٧٦ .
(٦) ينظر : فقه اللغة العربية : د. كاصد ياسر الزبيدي : ١٣٧ .
(٧) ينظر : علم اللغة العام ــ الأصوات : د. كمال محمد بشر : ٨٧ .
(٨) ينظر : أسس علم اللغة : ماريوباى : ٨٣ .

وقدْ أكسب هذا الهمس اللفظة سلاسة ورشاقة وخفة ، مما يجعلها تلائم المعنى الذي عبّرت عنه وهو الجماع ، حتى كأنّ الإيقاع الموسيقي لهذه اللفظة يشير إلى ما في عملية المجامعة منْ همس ولمس ونحو ذلك .

إنّ هذا يجعل التعبير بالملامسة يبعث هدوءاً واستقراراً وإيناساً في نفوس المخاطبين ومشاعرهم .

التّعبير عن الجماع بالغشيان :

لابد لنا منْ أنْ نقف متأمّلين جمالية اللطف في التعبير القرآني عن الجماع بالغشيان ، قال عزّ ذكره :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾[1]

والغشاوة في الأصل اللغوي لفظ لما يغطي الشيء[2] . وغشاء الشيء غطاؤه ، وغشى الشيء تغشية إذا غطّاه[3]. وقدْ كنّى الله سبحانه وتعالى بلفظ الغشيان في قوله :﴿ تَغَشَّىٰهَا ﴾ عن المجامعة[4] . وسبب مجيء هذه الكناية هو أنّ التصريح بلفظ الجماع يعد مستقبحاً في الذكر[5] . لذا إنّ التعبير في هذا الخطاب ـ الموجّه إلى بني آدم ـ ترفع عن التصريح وجاء بهذا التعبير الستير العفيف تلطفاً في الخطاب . وهذه الكناية لا تقف عند حدود الابتغاء عمّا يستقبح ذكره من الألفاظ بل إنّ فيها دلالة معبّرة عن المعنى[6]. فالغشاء يعني الستر واستعمال هذه اللفظة يدلّ على أنّ الزوج يكون ستراً حافظاً للزوجة .

لقد عبر القرآن عن هذه العلاقة ((بأرفع أسلوب بكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها مثيلاً ولا بديلاً))[7] ، وقد حمّل هذا التعبير من الدلالات ما لم يحمله أيّ تعبير آخر . فإنّ استعمال لفظ التغشي عن عمل الجنس يعدّ مشبعاً لغريزة فطرية ، وموجباً لعفاف شامل كريم ، ومغطياً لما يتطلبه الجسد في جوّ يتسم بالطهر والنزاهة ، فالرجل عند قيامه بعمل الجماع فأنه يقوم بغشاء زوجته بثوب يفيض عفافاً شاملاً ، ويكـــون

---

(١) الأعـــــراف : ١٨٩ .
(٢) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٢٦١ (غشا) .
(٣) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٠٧ (غشي) .
(٤) ينظر : التفسير الكاشف : ٢ / ٢٨٩ .
(٥) ينظر : البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن : ابن أبي الإصبع المصري : ٢٨٧ .
(٦) ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن : السيوطي : ٣ / ١٠١ .
(٧) تلخيص التمهيد : العلامة محمد هادى معرفة : ٢ / ٣٠٨ .

مغطيا لها بلباس هو لباس التقوى ، يحفظها ويستر عليها بترفق وتلطف ، فما أرق هذا التعبير وأروع أسلوبه[1] .

إنّ هذا التعبير يلطف في تصوير هذه العلاقة بين الزوجين ، من أجل تنسيق صورة المباشرة مع الجوّ السكنيّ ، ومن أجل إضافة الرقة لهذا التغشي ، لكي يبدو وكأنه مزيج بين طائفتين ، لا وكأنه لقاء بين صيدين[2] .

يرتبط الصوت في اللغة بجانب المعنى ، وذلك عن طريق تجسيد الصوت للألفاظ الذي تتألف من أصوات تنتظم في سياقات مركبة[3]. ويبدو هذا جليّا في لفظة : (تغشّاها) . فكل من التاء والشين والهاء أصوات مهموسة[4] . وهذا الهمس المتأتي من هذه الأصوات يمنح اللفظة سلاسة وليونة ورقة ، لذا تكون اللفظة اللطيفة الجميلة مجسدة المعنى التي عبّرت عنه وهو الجماع فتكون في غاية التأثير في نفوس المخاطبين ، وهذا في غاية اللطف ومنتهاه .

التّعبير عن كلّ من الرجل والمرأة باللباس :

ولي أنْ أقف عند أحد التعابير القرآنية اللطيفة ألا وهو التعبير بـــ : (اللباس) ، جاء ذلك في قوله عزّ وجلّ : { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ }[5] .

اللباس في الأصل اللغوي هو الشيء الذي يلبس ، واللباس لكل شيء هو الغشاء[6] . والقرآن الكريم استعمل كلمة اللباس للتعبير عن كل من الرجل والمرأة . واختيرت كلمة اللباس ؛ لأنها تشير إلى شدّة الاحتياج ، وذلك الاحتياج هو مثل احتياج المرء للباس ، وبذا يكون مصدراً للراحة والزينة معاً[7] .

---

(١) ينظر : تلخيص التمهيد : ٢ / ٣٠٨ .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن : ٩ / ٦٨ .
(٣) الأسس الجمالية في النقد الأدبي : د. عز الدين إسماعيل : ٢٢٩ .
(٤) ينظر : الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم : د. محمد فريد عبد الله : ١٢٣ ، وفقه اللغة العربية : د. عبد الحسين مهدي عواد : ١٢١ .
(٥) البقـــــرة : ١٨٧ .
(٦) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٩٨٦ (لبس) .

وبما أنّ كلاً من الرجل وامرأته يعتنق كل منهما الآخر ويشتمله ، شُبّه كلّ منهما باللباس الذي يكون مشتملاً عليه[1] . وبذا إنّ التعبير فيه ((من اللطف ما لا يخفى ، وفيه من الاستعارة لأعظم أمر اجتماعي وهي الحياة الزوجية))[2] .

يعتمد القرآن الكريم على جمال الكلمة والتأثير المضمون لها ، لكي يهزّ الوجدان ويوقظ العقول ويحرّك الأفئدة لدى الناس[3] . وهذا ما يظهر في هذا التعبير ، فإنّ كلمة اللباس في غاية الجمال الناتج عن روعة التصوير ، فالمرأة لباس الرجل فهي تحفظه وتستره وتقيه كما هو اللباس ، والرجل لباس المرأة فهو يحفظها ويسترها ويقيها كما هو اللباس ، بذا إنّ لهذه الكلمة تأثيراً كبيراً على النفوس المخاطبة ، بل إنّ النفوس لتطيب وتطمئن وتستأنس عند تلقيها هذا الخطاب .

إن التعبير القرآني يختار ألفاظه على درجة عالية من التأنق والدقة ، مما يوحي بدلالات هي في غاية الإيحاء والتأثير ، ويلفت الانتباه في هذا التعبير استعمال لفظ : (اللباس) دون لفظ : (الثياب) إذ قال تعالى : { هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } ولم يقل : (هنّ ثيابٌ لكم وأنتم ثياب لهنّ) ويبدو أنّ هذا يدل على الصلة والترابط والاندماج بين الزوجين ، لدرجة أنْ لا يستطيع أحدهما أنْ يستغني عن الآخر ، وهذا ما لا توحي به لفظة الثياب .

التعبير عن النساء بالحرث

الحرث هو إلقاء البذور في الأرض وتهيئة الأرض للزراعة[4] . والقرآن الكريم استعمل لفظ الحرث معبراً به عن النساء ، إذ يقول سبحانه { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ }[5] .

لقد جاء التعبير عن النساء بالحرث على سبيل التشبيه[6] . إذ جعلت النساء بمنزلة الأرض التي يُزرع فيها ، وشبهت النطفة التي تلقى في أرحامهنّ لغرض الإيلاد

---

(١) ينظر : أضواء على متشابهات القرآن : الشيخ خليل عطية ياسين : ١ / ٩٥ .
(٢) مواهب الرحمن : ٥ / ٩٠ .
(٣) ينظر : مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي : د. عماد خليل : ١٣٧ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٢٢٦ (حرث) .

بالبذر الذي يلقى في المحارث لأجل الاستنبات[1] . إن هذه الصورة القرآنية تحمل في طياتها معنى لطيفاً ، ويتأتى ذلك من الصورة الجميلة الرائعة التي عرضها القرآن في خطابه للأزواج ، وذلك بتشبيه النساء بالأرض المنتجة التي توحي بمعاني الخير والخصب والزهوّ والعطاء ، ولا يخفى ما لهذه المعاني من تأثير مؤنس وطيّب على نفوس المخاطبين .

إذا دققنا النظر في هذا التشبيه ــ وهو تشبيه بليغ ــ نجد أنّ الخطاب القرآني قد ارتفع بالمشبّه (النساء) إلى مستوى المشبه به (الحرث) وذلك لكي يؤكد تساويهما في الصفة وكأن لا فرق بين كل من النساء والحرث ، ثم إن حذف وجه الشبه وأداة التشبيه يجعل القارئ يتلمس الإيماءات الرائعة في تصوير هذه العلاقة الخفيّة بين كل من الأرض في الخضرة والزهوّ وطيب الثمار ، وبين المرأة المنتجة التي تمد الحياة بمقوّم يعد من أهم مقومات بقائها وهو الإنسان[2] .

كما يستشف من هذه الصورة القرآنية الرائعة أنّ ((احتياج المجتمع الإنساني في بقاء النوع إلى النساء كاحتياجهم إلى الزرع ، وانهنّ الجزء المكمل لهذا المجتمع بل الأصل في مادته ، وبالتآلف معهن تتم الحياة السعيدة ، وفي هذا التعبير كمال العطف بهن ، وفيه من حسن الأسلوب وروعة البيان ما لا يخفى))[3] .

التعبير في وصف العلاقة الزوجية :

يلحظ فيما يتعلق بوصف العلاقة الزوجية في التعبير القرآني أنها تحتاج إلى كلمات تتسم بالإيحاء[4] . لذا صرّح القرآن الكريم بهذا تصريحاً ، بتعبير في غاية اللطف وهو قوله تعالى:{وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً }[5] فقوله تعالى : { مِّنْ أَنفُسِكُمْ } بمعنى من جنسكم وغاية ذلك هو سكينة النفس وهدوؤها[6] .

---

(١) ينظر : مجمع البحرين : ١ / ٤٤٦ (حرث) .

(٢) ينظر : صورة المرأة في القرآن الكريم : أروى عبد الحميد محمد السامرائي(رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية للبنات ــ جامعة بغداد : ١٥٢ .

(٣) مواهب الرحمن : ٣ / ٣٨٨ ــ ٣٨٩ .

(٤) ينظر : تحفة العروس : محسن عقيل : ٣٣ .

(٥) الـ ٢١ ...

وهذا تعبير في غاية الروعة والجمال . فبما أنّ الزوجة من جنس النفس وشكلها فهذا أقرب تآلفاً وميلاً ومودة من كون الزوجة من غير شكل وجنس النفس ؛ لأنّ الجنس يستأنس أكثر بجنسه من استئناسه بغيره[1] .

وقد عبّر القرآن بقوله تعالى : { لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا } وهذا ((التعبير القرآني اللطيف يصوّر هذه العلاقة تصويراً موحياً ، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس))[2] ، ويلحظ أنه من علوّ أدب القرآن نسبته السكون إلى الرجال بصورة خاصة ، وكأنما القلق والذبذبة وإلحاح الشوق وشدة الفاقة أمر خاص بالرجال لوحدهم[3] . فإنّ كلاً من خفر المرأة وحيائها يقتضيان بعدها عمّا يماثل هذه النسبة في بلاغة هذا الكلام[4] .

إنّ قوله تعالى : { وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً } يشير إلى توّلد أمري الألفة والسكن اللذين يحصلان بالعقد ، وانه بدون حصول العقد يتعذر حصول الألفة والسكن ، لذا جاء التعبير بلفظ (جَعَل ...) وهذا من الإعجاز القرآنيّ المتجلي في روعة أسلوب هذا الكتاب الكريم[5] وتنتج لفظة (بين) بظرفيتها جواً يتضمن كل الروابط الإنسانية والأسرية التي تقوم بشدّ الرجل نحو زوجته وتظليلهما بغيمة من المحبة والسلام .

إنّ التعبير القرآني جاء بلفظ المودّة والرحمة لأنهما ((عنصران أخلاقيان روحيان يجعلان التمازج الروحي بين شخصين ، فمَن يودّ شخصاً ويرحمه تدخل أحاسيس هذا الشخص ومشاعره في حساباته الشعورية والروحية ممّا يجعل الزواج عمليّة اندماج جسدي وروحي ونوعاً من أنواع الالتصاق الذي يقترب من الوحدة))[6] ولأن المودة هي مشاعر الحبّ التي يتبادلها الزوجان فيما بينهما ، والرحمة هي عطف وشفقة وفي الأخص عندما يكون أحدهما بحاجة إلى صاحبه[7] .

---

(١) ينظر : تفسير البصائر : الجويباري : ٣٠ / ٤٣٩ .
(٢) في ظلال القرآن : ٢١ / ٣٦ .
(٣) ينظر : العفاف بين السلب والإيجاب : الشيخ محمد أمين زين الدين : ٦٧ ــ ٦٨ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه .
(٥) ينظر : تفسير البصائر : ٣٠ / ١٦٣ .

المبحث الثاني

في أحوال الإنسان الخاصّة

التعبير عن الحدث بالغائط :

الغائط في اللغة : إنما هو المكان الواسع المنخفض من الأرض ، وقدْ كانوا إذا أرادوا أن يقضوا حاجتهم ذهبوا إلى الغائط[1] . غير أنّه يكمن خلف لفظ الغائط ــ في الاستعمال القرآني ــ معنى ذا عمق ، إذ إنّ الغائط تعبير رمزي لكناية عن قضاء حاجة الإنسان[2] . إذ كُنّي بلفظ الغائط في تعبير القرآن عن الحدث[3] . وعلى هذا جاء قوله تعالى : { أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ}[4] ،وسبب مجيء هذه الكناية هو التعبير عمّا يستحيي ذكره ، فجيء بتعبير يستحسن لفظه وهو الغائط[5] . تلطفاً في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين . إذ إنّ عقّة البيان التي عهدت في القرآن الكريم دفعت به في هذه الآية المباركة ــ كما هو وارد في الآيات الأخرى ــ إلى التعبير عن قضاء الحاجة بعبارة تفصح عن المعنى المقصود وهي في الوقت نفسه لا تتسم بالغرابة ولا بعدم التناسب من ناحية أخرى[6] .

ولأجل أنْ يبالغ القرآن في حشمته ونزاهته في خطابه لما عُهد عنه من كرامة في الأسلوب لمْ يعبّر على طريقة باقي الجمل : (أو جئتم من الغائط) إنّما عبّر بقوله : {أَحَدٌ مِّنكُمَ }[7] . لأنه حينما جاء بالكناية عن الغائط كره أنْ يسند ذلك الفعل في خطابه ، فاختار الخطاب بلفظ الغيبة[8] . وما أحسن إتيان الخطاب هنا بالغيبة لأنه قدْ كنّي به عن الشيء الذي يسبب الحياء ، وهذا من محاسن كلام القرآن الكريم[9] .

---

(١) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٣١٦ (غوط).
(٢) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : د. فاخر الياسري : ١٢٧ .
(٣) ينظر : مجمع البيان : ٣ / ٥٧ .
(٤) النســـــــاء : ٤٣ .
(٥) ينظر : البرهان في اعجاز القرآن أو بديع القرآن : ٨٣ .
(٦) ينظر : الأمثل : ٣ / ١٤٣ .
(٧) ينظر : آلاء الرحمن : ١٢٥ ــ ١٢٦ .

((لمْ يزدْ مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها وسياجاً لجلالها .. وقد يقال : انّ كلمة الغائط ... قد أصابها الزمن ، فجعلها ممّا تنفر النفس من استعمالها ، ولكننا إذا تأملنا الموقف وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام ، وجدنا أنّ القرآن عبّر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه في كناية بارعة فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض ، وكانوا يمضون إليه في تلك الحالة ، فتأمل أيّ كناية نستطيع [استعمالها] مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن شئت أنْ تبين ذلك فضع مكانها كلمة تبرزتم أو تبوّلتم ، لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان))[1] ، لذا إنّ التعبير بلفظ الغائط تعبير في غاية الجمال والروعة ، إذ انّه في تجدد ابداعي مستمرّ ، فكلما مرّ عليه الزمن زاد في جماله ونظارته وبهجته مع ما يحمله من قيمة تأدّبيّة تهذيبيّة تنسجم مع لطف خطاب القرآن الكريم .

التعبير عن الحدث بأكل الطعام :

قال سبحانه : { مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ }[2] .

إن التعبير بأكل الطعام جاء للكناية عن قضاء الحاجة [3] ، فقوله تعالى : { يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ } جاء كناية عن الحدث ، وجاءت هذه الكناية تعبيراً عن المفحش من اللفظ الذي لا يعدّ لائقاً ، فدلّ التعبير على معنى الحدث بلفظ ينماز بالطهر واللياقة والعفة[4] . فالقرآن الكريم حرص على التعبير عن المعنى الذي يتسم بالقبح بالأسلوب الكنائي ، مستعملاً بذلك أدباً رفيعاً وعالياً[5] .

إن ظاهر النص القرآني في التعبير بأكل الطعام يعطي معنىً قريباً ، وهو الذي يتبادر إلى ذهن المتلقي في الوهلة الأولى ، وهو أكل الطعام لكنّ المعنى المقصود من التعبير هو ما وراء أكل الطعام ، وهو ما يشير إليه ذلك الأكل[6] .فأي روعة وجمال يكمن وراء هذا التحول الدلالي لأكل الطعام من المعنى الأصلي إلى الدلالة على ما وراء هذا الأكل وهو الحدث ! .

---

(١) من بلاغة القرآن : ٧٤ ــ ٧٥ .
(٢) المائـــــدة : ٧٥ .
(٣) ينظر : مجمع البيان : ٣ / ٢٢٩ .
(٤) ينظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر وبيان إعجاز القرآن : ابن أبي الإصبع المصري : ١٤٣ .
(٥) ينظر : الإشتراك والتضاد في القرآن الكريم : د. أحمد مختار عمر : ١١٣ .
(٦) ينظر : التعبير الفني في القرآن الكريم : بكري شيخ أمين : ٢٠٨ .

إنّ الكناية عن الحدث في قوله تعالى : { كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ } تعدّ من الكنايات المهذبة ، لأنّ التعبير بأكل الطعام فيه من الأدب والرقة ما يمنع أذن السامع المخاطب من أنْ تسمع : كانا يتبرّزان أو كانا يتبوّلان[1] فلو أن التعبير جاء بـــ : كانا يتبرزان أو كانا يتبولان فحينها ماذا سيصبح التعبير ، وما مدى النفور الذي يصاحب النفس عند سماعها مثل هذا التعبير ، ثم إنّ هذا لا يتناسب مع سياق الكلام إذ قدسيّة روح الله عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) .

من هنا نعرف كم كان القرآن متلطفاً في خطابه ، فاستعمل أعفّ الألفاظ وأحشمها وأكثرها أدباً وتهذيباً وجمالاً .

التعبير بقضاء التفث :

جاء التعبير بالتفث في قوله عزّ ذكره : { ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ }[2] ، والتفث في هذا التعبير كما أوضح أصحاب اللغة : الشعث وما كان من قبيل تقليم الأظافر والشارب وحلق العانة وغير ذلك[3] . وصرّح أهل التفسير أن التفث هو القذارة وما هو لاصق بالجسم وزائد عنه مثل الأظفار والشعر ، وصرّح بعضهم أنّ أصل التفث القذارة التي تكون تحت أظفار الجسم وما يماثلها[4] . هذا وقد فسرت عبارة : { لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } على أنها التقليم للأظفار والتطهير للبدن والنزع للإحرام ، ونستطيع أنْ نقول إنّ عبارة { لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ } ترمز ــ في تعبير آخر ــ إلى برنامج (التقصير) الذي هو منسك من المناسك الخاصة بالحج[5] . لذلك نستطيع أنْ نلتمس اللطف في هذه الآية من أنّ التعبير قدْ ضمّ كلّ تلك الأمور التي يعدّ بعضها مستثقلاً في الذكر وغير لائق كإزالة الأوساخ والقذارة وقص الشعر والتطهير ، وغير ذلك ممّا يتعلق بمناسك الحج ، كلّ هذه الأمور المتعلقة بالبدن قام التعبير بضمّها واختصارها والدلالة في هذا التعبير الستير العفيف .

---

(١) ينظر : من بلاغة القرآن : ٢٢٧ .
(٢) الحـــج : ٢٩ .
(٣) ينظر : القاموس المحيط : ١ / ١٦٢ (تفث)
(٤) ينظر : الأمثل : ٨ / ٣٩٨ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه .

التعبير عن السوأة بالفرج :

الفرج هو الشقّ الذي يكون بين الشيئين[1] . وعندما يعبر القرآن في خطابه عن حفظ السوءات من النظر ــ سواء أكان من الرجال أم النساء ــ فما ألطف ما يعبر عن ذلك بـــ : (الفروج) ، جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى : { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ }[2] ، إذ جُعل لفظ الفرج في هذه الآية اسم للسوءات كافة من الرجال والنساء[3] . فإن التعبير ــ في هذا الخطاب الموجه إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) لكي يأمر المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج ــ جاء بهذا التعبير الكنائي الذي ينماز بالعفة والذوق والأدب .

إنّ ((القصد من حفظ الفرج ــ كما ورد في الأحاديث ــ هو تغطيته عن الأنظار وقدْ جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله : « كلّ آية في القرآن فيها ذكر الفروج فهي في الزنا الا هذه الآية فإنها من النظر »))[4] ، وبذلك إنّ معنى قوله سبحانه وتعالى : { وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ } أي إعمرهم بحفظ الفروج ، وبذلك قدْ كنّى القرآن الكريم بهذا التعبير عن السوأة ، وعلى مثل هذا التعبير جرى القرآن في استعمالاته المليئة بالأدب والخلق[5] .

---

(١) ينظر : العين : ٦ / ١١٠ (فرج) ، ومفردات ألفاظ القرآن : ٦٢٨ . (فرج) .
(٢) النـــــور : ٣٠ ــ ٣١ .
(٣) ينظر : تهذيب اللغة : الأزهري : ١١ / ٤٤ (فرج) .
(٤) الأمثـــل : ٩ / ٦١ .
(٥) ينظر : الميزان : ١٥ / ٥ .

المبحث الثالث

في الأمور التعامليّة

التعبير عن الدعوة إلى الإنفاق :

جاء تعبير القرآن في الدعوة إلى الإنفاق في عدة آيات قرآنية ، من ذلك قوله عزّ ذكره : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] .

ما أكثر لطف هذا التعبير ورقته وأجلّ هذا البيان ، فقوله سبحانه : ﴿ مَّن يُقْرِضُ ٱللَّهَ ﴾ جاء بأسلوب الاستفهام من الله جلّ شأنه بمعنى الذي يتم صدور القرض عنه مع كون هذا القرض على وجه حَسَن فإنّ الله تعالى يضاعف له ثوابه[2] . فقدْ رغّب الله عباده ــ في هذا الخطاب ــ وحثّهم على الإنفاق في سبيله ((بأسلوب رفيع يجد الفرد لذة النداء في البذل والعطاء وتقديم الخير على السواء ... كيف وإنّ الخطاب صادر من المالك الحقيقي والغني عن العالمين))[3] ، فعلى الرغم من أنّ الله جلّ وعلا هو المالك الحقيقي لعالم الوجود بأجمعه والناس إنّما همْ ممثلون موكلون في أنْ يتصرّفوا في جزء صغير من العالم هذا كما جاء ذلك في الآية السابعة من سورة الحديد : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه ﴾ لكنّ الله تعالى ذكره مع كلّ هذا فانّه يرجع مستقرضاً من عبده[4] .

ويحثّ التعبير القرآني المخاطبين على الإنفاق والبذل في سبيل الله تبارك وتعالى ، فلمْ يقف التعبير لمن : ﴿ يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ بمضاعفة ذلك القرض ، وإنّما وصف الأضعاف الذي تُضاعَف لصاحب القرض بالكثيرة في قوله تعالى : ﴿ يضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ إن هذا يجعل التعبير أكثر ترغيباً وتأثيراً في المخاطبين ، فهذا أسلوب في منتهى اللطف والرقة يبوح به القرآن في هذه الآية المباركة .

---

(١) البقـــــــرة : ٢٤٥ .
(٢) ينظر : العقل البشري في تفسير القرآن : الشيخ محمد طاهر آل شبر الخاقاني : ٥٣٩/٢ .
(٣) مواهب الرحمن : ٤ / ١٢٤ .
(٤) ينظر : الأمثل : ٢ / ٥٧ .

التعبير عن أعطاء مُهور النساء :

قال تقدست أسماؤه : { وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا }[1] . في هذه الآية المباركة من لطافة التعبير ورقته مالا يخفى . ففي قوله تعالى : { وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً } يلحظ أنّ القرآن أوضح ثلاثة أمور : فالأمر الأول أنّه أطلق كلمة (صدقة) بضمّ الدّال على المهر ليدلّ على العلاقة الصادقة من المرأة مع الرجل، والأمر الثاني ألحق الضمير (هُنّ) بالصدقات ليُدلّ على أنّ المهر متعلق بنفس المرأة لا بغيرها ، والأمر الثالث استعمل لفظ (نحلة) وذلك تصريح على أنّه لمْ يكن ثمّة عنوان للمهر سوى الهدية والمنحة[2] . بذا تضمّن التعبير دلالات تلقي بضلالها تأثيرا طيبا على عاطفة الرجل وشعوره من أجل بذل حقّ المرأة .

إنّ إيراد التعبير بلفظ (النحلة) يحمل في طياته معنىً في غاية التلطف واللين . وذلك أنّ النحلة ما يقوم الإنسان باعطائه بنفس طيّبة ، ومن هذا المعنى قولهم : (نحلة الكلام والقصيدة) إذا تمّت نسبتها عن نفس طيّبة[3] . فمع أنّ إيتاء المُهور أمر واجب على الرجال الا أنّ القرآن آثر التعبير بلفظ النحلة ، وذلك لإضافة معنى الرضا التام وطيب الخاطر في هذا الإيتاء[4] .

وقد عبّر القرآن بقوله : { فَإِن طِبْنَ } ولمْ يُعبّر بـــ : (فإنْ وهبن أو سمحن) ليُعلم أنّ الذي يراعي هو تجافي نفس المرأة عمّا تهبه بطيبة نفس[5] . إنّ مجيء كلمة (طِبن) في هذا التعبير يضفي بجمال نَفسي ومعنوي ، زيادة على هذا فإنّ هذه الظلال النفسية تطفو على هذا التعبير فتمنحه دلالة لا تقوم بمنحها أيّ كلمة غيرها[6] .

---

(١) النســـاء : ٤ .
(٢) ينظر : نظام حقوق المرأة في الإسلام : الشهيد مرتضى مطهري : ٢٢٥ .
(٣) ينظر : الفروق في اللغة : ٥٣٣ .
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبي السعود : ١ / ٤٨٢ .
(٥) ينظر : الكشاف : ١ / ٣٦٠ .
(٦) ينظر : منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه : مصطفى الصاوي الجويني :١١٤.

إنّ هذا التعبير القرآنيّ لا يريد أنْ تكون بيئة العائلة والحياة ميدان لسلسلة قوانين ومقرّرات جافة ، بلْ يُريد لها أنْ تكون مسرحاً يتم فيه تلاقي الزوجين عاطفيّاً وإنسانيّاً ، ويريد للحبّ أنْ يكون سائداً في هذه الحالة إلى جنب ما قرّر وذكر من أحكام[1] .

وتُختتم الآية الكريمة بجملة قصيرة تفيض لطفاً ولينا : { فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا } . فالهنيء هو ما يتسم بطيبه واستساغته فلا شيء يُنغصه ، والمريء هو الذي تُحمد عاقبته ويتمّ هضمه فلا يُسبب أذىً أو ضرراً[2] .

التعبير عن الإنفاق على السفهاء :

بعد أنْ يأمر الله سبحانه بعدم إتيان الأموال للسُفهاء ، يُبيّن أمراً منْ أمور التعامل معهم في قوله تعالى : { وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا }[3] .

فالتعبير بقوله تعالى : { وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا } يفيضُ لطفاً ورفقاً ، وذلك أنّه مع أنّ الله سبحانه هو الرازق الأوحد للخلائق أجمعها ، وكلّ ما لدى الإنسان منْ رزق فهو منه ، كما جاء في الآية الثالثة من سورة البقرة : { وممّا رزقناهم ينفقون } إلا أن الله تعالى ذكره أسندَ فعل الرزق في هذا التعبير إلى المخاطب نفسه ، وهذا ترغيب ما بعده ترغيب .

إنّ القرآن الكريم اختصر كلّ ما يتعلق بالإنفاق على السفهاء بلفظ وجيز وهو قوله تعالى : { وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ } . وذلك أنّ لفظتي الرزق والكسوة في العرف القرآني هي مثل الرزق والكسوة الجارية على ألسنتنا ، إذ هي مثل الكناية المكنى بها عن مجموع ما لدى الإنسان من حاجات ماديّة حيويّة ، فالتعبير إذن يتضمّن كلّ ما يكون بحاجة الإنسان[4] . ان هذا الاختصار والايجاز يجعل التعبير في غاية الخفة والعذوبة والجمال .

---

(١) ينظر : الأمثـــــل : ٣ / ٢٧ .
(٢) ينظر : مجمع البيان : ٣ / ١١ .
(٣) النســـاء : ٥ .
(٤) ينظر : الميزان : ٤ / ٢٤٣ .

التعبير عن امتحان اليتامى :

بتعبير لطيف يأمر الله تعالى فيما يتعلق بامتحان اليتامى بقوله : { وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ }[1] .

نلحظ في هذه الآية أنّ القرآن الكريم عبّر بلفظة (آنستم) . وقد أريد بلفظ الإيناس في هذه الآية المباركة الرؤيا والمشاهدة[2] . والقرآن الكريم عبر بلفظ الإيناس ذلك أنّ في لفظ الإيناس نوع من التآلف لأنّ مادة هذا اللفظ مأخوذة منّ الأنس[3] . وبهذا فإن التعبير يشعر المخاطبين بنوع من الراحة والطمأنينة ، فهو تعبير رقيق ومؤنس في الوقت نفسه ، وليس فيه شيء من ثقل أو شدة ، فالله تعالى آثر الخطاب بهذا اللفظ الرقيق الجميل وذلك بقصد التأثير ، لأن الله تعالى عالم بأن القول الرقيق الجميل يؤثر في القلب والنفس .

ثمّ إنّ في قوله تعالى : { مِّنْهُمْ رُشْدًا } تقدم الجار والمجرور على المفعول وهذا يفيد ــ فضلاً عن الاهتمام بما تقدّم إضافة عنصر التشويق لما تأخّر من الكلام[4] .

وبعد أن يلجأ التعبير القرآني إلى تشويق مخاطبيه ومتلقيه للكلام المتأخر يجيء قوله تعالى : { فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ } إذ يُلحظ استعمال لفظ الدفع دون لفظ الإيتاء على سبيل التمثيل ، فلمْ يقل القرآن : (فأتوهم أموالهم) وإنما قال : { فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ } ((ودفع مال اليتيم إليه كناية عن إعطائه إيّاه وإقباضه له كأنّ الوليّ يدفعه إليه ويُبعده عن نفسه فهو على ابتذاله كناية لطيفة))[5] .

---

(١) النســـاء : ٦ .
(٢) ينظر : الأمثل : ٣ / ٣٥ .
(٣) ينظر : الميــزان : ٤ / ٢٤٤ .
(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم : ١ / ٤٨٥ .
(٥) الميزان : ٤ / ٢٤٤ .

التعبير عن رعاية اليتامى :

قال تعالى : { وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا }[1] .

إنّهُ تعبير لطيف وأسلوب في غاية التأثير والعمق ، إذ عمدَ القرآن فيه إلى استجاشة عاطفة الآباء . ذلك أنّ عاطفة الأبوّة تشبّ بحبهم لبنيهم ، وتغلبها رحمتهم لهم كل حين ، وليس للمرء قناعة في السعادة بهم طوال حياته إنّما يعنيه شأنهم فيما بعد حياته[2] . وبذلك انطلاقاً من هذه العاطفة يُناجي القرآن الآباء أنْ يرحموا اليتامى[3] ؛ لأن الذي يخاف تركَ ذريّة ضعاف من بعده لم يكنْ ليُريد أنْ يحدث ذلك في ذريّته[4] .

ولنتأمّل اختيار القرآن الدقيق ، إذ اختار التعبير بكلمة (ضِعافا) ولمْ يختر كلمة (ضُعَفاء) وإذا قارنا بين الكلمتين من الناحية الصوتيّة نجد أنّ كلمة (ضِعافا) تبدأ بحركة (الكسر في حرف الضاد) وكأنّ هذا يُصور حالة انكسار اليتامى ، ذلك الانكسار الذي يصاحب اليتامى طوال أيّام حياتهم ، في حين أنّ كلمة (ضُعفاء) تبدأ بحركة (الضم في حرف الضاد) وليس الضمّ كالكسر ، وبهذا يكون التعبير في غاية التأثير على عواطف المخاطبين ومشاعرهم .

قارن الدكتور فاضل السامرائي بين كلمة (ضعاف) و (ضُعفاء) في قوله تعالى : { وله ذريّة ضعفاء }[5] ورأى أنّ كلمة (ضِعافا) تحمل معنى الضعف المادي أي أنّهم بحاجة إلى المال فهمْ في فقر ، والثانية لمْ تحمل معنى الضعف الماديّ انما المعنوي[6]. وأنا أخالف هذا الرأي ؛ لأنّ كلمة (ضعافا) وردت في سياق رعاية اليتامى ، واليتامى يعانون من الضعف المادي والمعنوي كذلك ، فهمْ بحاجة إلى الأمور المعنوية مثلما همْ بحاجة إلى الأمور المادية ، والأحاديث القدسية تؤكد ذلك ومنها ((إنّ رجلا شكـــا إلى

---

(١) النســـاء : ٩ .
(٢) ينظر : نفحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكي : ٢٢٧ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه .
(٤) ينظر : مواهب الرحمن : ٧ / ٣٠٧ .
(٥) ينظر : معاني الأبنية : د. فاضل صالح السامرائي : ١٦٨ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه .

النبي صلى الله عليه وآله قساوة قلبه ، فقال : إذا أردت أنْ يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم))[1] ، و عن الإمام محمّد الباقر (عليه السلام) قال: ((وأربع من كنّ فيه من المؤمنين أسكنه الله في عليين في غُرف في حمل الشرف كلّ الشرف من آوى اليتيم ونظرَ له فكان له أبــاً ..))[2] .

التّعبير عن معاشرة النساء بالمعروف :

يأمر الله تعالى الرجال بمعاشرة النساء بالمعروف إذ يقول : { وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا }[3] .

إنّ هذه الآية الكريمة تحمل ترغيباً عن طريق عدة أمور : وهي حسن الظنّ بالمرأة ، والأمل الجديد فيها ، والعطف القويّ عليها ، وهذا الأسلوب القرآني ليس فيه تحاملاً بلْ هو أسلوب يتسمُ بودّه ورقته يستميلُ الزوج ويُغريه بزوجته قبل اتساع الفجوة بينهما[4] والتعبير القرآني استعمل كلمة المعاشرة . وهذه الكلمة تحمل معنى مشاركة الزوجين ومساواتهما أي قوموا بعشرتهنّ بالمعروف ليقمن بعشرتكم بذلك[5].

فالفائدة من تلك المعاشرة تلحق الزوج مثلما تلحق الزوجة ، وعلى هذا المعنى نصّت الأحاديث الشريفة ، قال الإمام علي (عليه السلام) : ((إنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة فدارها على كلّ حال وأحسن الصحبة لها ليصفو عيشك))[6] ، فبمداراتها صفاء العيش ، ثم إنّ في معاشرة الزوجة بالمعروف الرحمة من الله ، وهذا ما نصّ عليه الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) إذ قال : ((رحم الله عبداً أحسنَ فيما بينه وبين زوجته))[7] .

---

(١) مجمع الزوائد : نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي : ٨ / ١٦٠ ، و كنز العمال : علاء الدين علي المتقي إبن حسام الدين الهندي : ٣ / ١٦٩ .
(٢) الأمالي : الشيخ المفيد : ١٦٧ .
(٣) النســـــاء : ١٩ .
(٤) ينظر : نفحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكي : ٢٢٩ .
(٥) ينظر : تفسير المراغي : أحمد مصطفى المراغي : ٤ / ١٢٢ .
(٦) من لا يحضره الفقيه : الشيخ الصدوق : ٣ / ٥٧١ .
(٧) المصدر نفسه : ٣ / ٥٢٩ .

إنّ تعبير العشرة بالمعروف تعبير شامل للحياة بين الزوجين بكلّ ما فيها من تفاصيل بما في ذلك الممارسة الجنسية[1] . وبذا فالجماع يدخل في هذه المعاشرة حتى قيل إنّ على الزوج أنْ يشبع زوجته معاشرة مثلما عليه أنْ يُشبعها من ناحية القوت إذا تمكن من ذلك[2] .

بهذا فانّ التعبير اختصر كلّ ما يتعلق بالعشرة الزوجية بأوجز لفظ وأبينه وهو قوله تعالى : { وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ } وهذا في منتهى اللطف والتهذيب والروعة والجمال .

التّعبير عن الإحسان إلى الوالدين :

قال سبحانه : { ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ }[3] .

إنّ القرآن الكريم عمد من خلال هذه العبارات الندية إلى استجاشة العاطفة والوجدان لدى الأبناء ، لأنهم بحاجة إلى هذا ليرجعوا إلى الوراء من أجل رعاية الوالدين[4] . فالتعبير بكلمتي (الكبر ، وعندك) في منتهى التأثير . لأنّ لكبر السنّ جلال وهيبة ، وإنّ لضعف كبر السنّ إيحاء ناتج عنه[5] . وإن كلمة (عندك) تُفضي بمعنى اللجوء والحماية في حال كبر السنّ وضعفه[6] . فالتعبير القرآني يُصوّر الوالدين في كبر سنهما وضعفهما في حالة اللجوء والحماية لدى الأبناء .

ويُلحظ في تعبير قوله تعالى : { وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ } أنّه جاء بصورة غير مباشرة على خلاف المطالبة بعدم قول (أف) وعدم قهر الوالدين إذ جاءتْ بصورة

---

(١) ينظر : الحبّ في العلاقات الزوجية : محمود الموسوي : ١٢٥ .
(٢) ينظر : تحفة العروس : ٩٤ نقلاً عن روضة المُحبين : ١٢٤ ــ ١٢٦ .
(٣) الإســـراء : ٢٣ ــ ٢٤ .
(٤) ينظر : دروس من القرآن الكريم : السيد أحمد زكي تفاحة : ٢٤٥ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه .
(٦) ينظر : المصدر نفسه .

مباشرة ، وهذا يلزمنا أنْ نسأل : ما هي المسوغات الفنية لهذه الصورة التي جاءت بطريق الاستعارة[1] ؟ . وللجواب عن ذلك ((لقدْ أوضح الإمام الصادق عليه السلام بأنّ المقصود من خفض الجناح هو ألا يملأ الولد عينيه من النظر إليهما ، وألا يرفع صوته فوق أصواتهما ، وألا يرفع يديه فوق أيديهما ، وألا يتقدم أمامهما . إنّ هذه الدلالات المتنوعة التي ألمح الإمام الصادق عليه السلام إليها ، تُفسر لنا كيف أنّ الدلالات المتنوعة يمكن لها أنّ تختصر وتُلم في عبارة فنيّة صوريّة هي الاستعارة))[2].

إنّ المعنى في التعبير بخفض الجناح مأخوذ من الطائر عندما يقوم بخفض جناحه ليقوم باستعطاف أمّه لتغذيه ، فهو أدب أفراخ الطيور إذا أرادت طلب الغذاء منْ أمهاتها[3] .

ولنتأمل دقة الاختيار في التعبير بكلمة الذل . فلو أنّ هذه الكلمة وردت في غير هذا السياق لكانت غير مستحسنة ، لكنها لمّا وردت في سياق احترام الوالدين كانت في غاية الحسن والجمال . لأنّ هذا الذل ذلّ الوالدين ، إذ لمْ يكن ذلاً مُسفاً دنيئاً ، بلْ هو ذلّ يتسم بسموه ونبله[4] .

---

(١) ينظر : دراسات فنية في صور القرآن : د. محمود البستاني : ٣١٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ينظر : دروس من القرآن : ٢٤٦ .
(٤) ينظر : التصوير البياني ــ دراسة تحليلية لمسائل البيان : د. محمد أبو موسى : ٢٧٨ .

الفصل الثاني

اللّطف في التعبير في الخطاب التأدّبي

المبحث الأوّل : في الدّعاء

المبحث الثاني : في خطاب الله أنبياءه وأولياءه

المبحث الثالث : في خطاب الأنبياء أقوامهم

المبحث الرابع : خطابات أُخرى

المبحث الأوّل

في الدعاء

الدعاء عبارة عن طلب مصحوب بالخضوع ويُطلق عليه بالسؤال[1] . وهو طلب إقبال المدعو على من يدعوه[2] . والدعاء هو الخيط الذي يُوصل العبد بربه[3] . و ((هو مخاطبة الله ومناجاته على نحو ينال الداعي بعده عطاءً دنيوياً أو أخروياً أو هما معاً))[4] ، ويشغل موضوع الدعاء مكانة مهمة في التعبير القرآني ، والله تبارك وتعالى أمر عباده بالتمسك بهذا الخيط في شتى الظروف ، وقد أكد سبحانه وتعالى على هذا الموضوع في آيات عديدة في كتابه العزيز ، من ذلك قوله جلّ وعلا : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }[5] ، وقد كان عباد الله ــ وفي الأخص أنبياء الله وأولياؤه (عليهم السلام) ــ من أكثر الخلق تمسكا بالدعاء والمناجاة ، وما يهمنا في موضوع الدعاء في هذا المبحث هو الوقوف عند اللطف في التعبير في هذا الأسلوب القرآني .

لقد كان للدعاء طابعٌ خاصٌ في التعبير القرآني ، فعند النظر في أسلوب الدعاء الذي جاء به التعبير القرآني يُلحظ أنّه جاء على درجة عالية من التأدب ، إذ الخضوع والخشوع والتذلل والتضرّع واستعمال أكثر التعابير ليناً وتهذيباً ، مما يدل على اللطف في التعبير في دعاء القرآن الكريم . وقد تمثل هذا في أدعية الأنبياء والأولياء والعباد الصالحين .

وقد كانت الأدعية والمناجاة التي يتوجّه بها أنبياء الله تعالى وأولياؤه وعبادهُ المتقين في غاية التأدّب ومنتهاه ، الأمر الذي يفصح عن لطفٍ كبير في تلك الأدعية القرآنية ، ويعرض لنا القرآن الكريم أمثِلة في غاية الروعة في لطف التعبير في أسلوب الدعاء القرآني .

---

(١) ينظر : كشّاف اصطلاحات الفنون : محمّد عليّ التهاوني : ٢ / ٣٠٦ .
(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن : السيوطي : ٢ / ٢٢٢ .
(٣) ينظر : أضواء على دعاء كميل : عزّ الدين بحر العلوم : ٦٢ .
(٤) خواطر حول الذنوب والأدعية : حيدر اليعقوبي : ١٥ .

دعـــاء المتقيـــن :

قال تبارك وتعالى : { ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ }[1]

في هذا النص المبارك من اللطف ما لا يخفى . إذ ابتدأ التعبير بكلمة : (ربنا) وإنّ من أفضل الأدعية هو الذي يبدأ بذكر الربوبية ، لارتباط حاجات الإنسان بمقام الربوبيّة[2] . زيادة على أنّ عبارة (ربنا) تكرّرت خمس مرّات . وإنّ هذا التكرار يدلّ على لين القلب ، ويجعله مفعماً بالإيمان الندي[3] .

إنّ التعبير في قوله تعالى : { وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ } في منتهى الأدب . إذا جاءت صيغة النهي (لا) في مقام الدعاء ، وفي هذا سرّ من أسرار التعبير ، وهو بيان الرغبة لدى العبد في الغفران ، وإظهار التضرع الكامل من العبد لله تعالى ذكره[4] .

إنّ لغة القرآن قائمة على التوازن بين ما يتطلبه ويقتضيه تعبير القرآن الفنيّ الجميل ، لذا اقتضت نمطاً خاصّاً لمفردات القرآن وتراكيبه من أجل المحافظة على عذوبته وسلاسته وإيناسه[5] . وهذا ما ورد في النص المبارك إذ لم يقم القرآن بتكرير الأصوات التي تتسم بتقارب المخارج ، فلا يُلحظ هناك تنافر بين أصوات الكلمات ، ونتيجة لذلك فليس هناك تنافر بين أصوات العبارات في هذا النصّ ، فعباراته منسابة بعفوية لا غاية لجمالها وعذوبتها ، وكل هذا سببه جمال الأصوات وتلاؤمها في هذا النص الكريم[6] .

---

(١) آل عمران : ١٩١ -١٩٤ .
(٢) ينظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب : الرازي : ٣١/٢٧ .
(٣) ينظر : مباحث في علوم القرآن : د. صبحي الصالح : ٣٣٨ .
(٤) ينظر : من بلاغة النظم العربي : د. عبد لعزيز عبد المعطي عرفه : ٢ / ٨٩ .
(٥) ينظر : من صور الاعجاز الصوتي في القرآن الكريم : د. محمد سليمان العبد (بحث في المجلة العربية للعلوم الإنسانية) ، العدد(٣٦) السنة التاسعة ، ١٩٨٩ : ٧٦ .
(٦) ينظر : التشكيل الصوتي وأثره في دلالة سورة آل عمران : جاسم غالي رومي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة البصرة : ١١١ .

ويُلحظ في هذه الآيات الوقوف على (الرّاء) المسكنة التي تتصف بالذلاقة ، والتي سُبقت بألف ليّنة في مثل : (أنصارٌ ، أبرار .....) وهذا يضفي على أسلوب الدعاء ترخيماً وترنيماً ونغماً جميلاً عذباً في الأسماع[1] . فيكون التعبير في منتهى الرقة والسلاسة واللّيونة . كما يلحظ كثرة الممدود ــ أصوات المدّ ــ وهي تكسو نغم التعبير بالهدوء والطول ، وتصوّر عمق التأمل والاستغاثة في الدعاء[2] . مما يتناسب مع الخضوع والخشوع والتذلل .

دعاء عيسى (عليه السلام) :

ورد دعاء نبي الله عيسى بن مريم (عليهما السلام) في قوله تعالى : { قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ }[3] .

إتسم هذا الأسلوب في الدعاء بالتراكم الدلاليّ ، إذْ عبّر (عليه السلام) بقوله : (اللهم ربنا)[4] . فقد عمد إلى تكرير النداء والغرض من ذلك المبالغة في التضرّع[5] . وقام بالجمع في ندائه بين إسم الذات المشتمل على صفات الجلال وبين الربوبيّة[6] . وإنما فعل ذلك للاستعطاف ليستجب الله تعالى الدعاء[7] . وهذا في غاية التأدّب .

نجد أنّ عيسى (عليه السلام) عندما قام بطلب الرزق من الله بقوله : { وارزقنا } ختم الدعاء بما يناسب ذلك الطلب ، إذ عبّر بقوله : { وأنت خير الرازقين } وبذلك جاء بوصف يناسب ما قامَ بطلبه ، وهذا من باب التأدّب في الدعاء والالتزام في طريقته .

---

(١) ينظر : مباحث في علوم القرآن : ٣٣٨ .
(٢) ينظر : دراسة أدبية لنصوص من القرآن : د. محمد المبارك :١٥٤ .
(٣) المائدة : ١١٤ .
(٤) ينظر : التراكم الدلاليّ في النص القرآني : مجيد طارش عبد (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية للبنات ــ جامعة بغداد : ١٠١ .
(٥) ينظر : التحرير والتنوير : الطاهر بن عاشور : ٧ /١٠٨ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه .
(٧) ينظر : المصدر نفسه .

دعاء إبراهيم (عليه السلام) :

قال تبارك وتعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ }[1] .

عند التأمّل في هذا الدعاء المبارك الذي ورد في نصّ التعبير القرآنيّ تظهر بعض مكامن لطف التعبير ، إذ ابتدأ نبي الله إبراهيم (عليه السلام) بكلمة (ربّ) . وإنّ منْ أكثر الأدعية رضاً عند الله الذي يبدأ بذكر الربوبيّة[2] . وقد تكرّر ذكر الربوبيّة في ثمان مرّات ، تناصفت بين لفظتي : (ربي) و(ربنا) . وفي هذا دلالات ذات إيحاء تنسجم مع جوّ الدعاء الروحانيّ ، تؤكّد خشوع الداعي وانقياده لله تعالى ذكره في الدعاء[3] .وهذا في غاية التأدب ومنتهاه .

لمْ يقلْ (عليه السلام) أنّ منْ عصاه ليس منه وأنّه سيعاقبه العقاب الشديد ، إنّما اكتفى بقوله : { وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } وهذا تعبير مليء بالعطف والأدب[4] . ولمْ يصرّح بما مرّ به وما لاقاه عند فراقه ابنه وزوجته وإنّما اكتفى بتعقيبه على ما مضى من دعاء بقوله : { رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ }[5] .

ويفاجئنا في هذا الدعاء ملمح جماليّ وروحانيّ رائع وهو الانتقال إلى حمد الله تعالى على إنعامه : { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ } ، ثم وصف الذات

---

(١) إبراهيم : ٣٥ ــ ٤١ .
(٢) ينظر : التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب : ٢٧ / ٣١ .
(٣) ينظر : المكان ودلالاته في القرآن الكريم : علي عبد محيي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة : ٣٥٥ .
(٤) ينظر : الأمثل : ٦ / ٥٤٠ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٦ / ٥٤٠ ــ ٥٤١ .

المقدسة بما يناسب موضوع الخطاب وإظهار كامل الثقة بالله سبحانه بقوله (عليه السلام) : { إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ } . لأن منْ شروط استجابة الدعاء ((الكيفية الروحية والنفسية التي يتوجه بها الإنسان إلى الله سبحانه ، من صدق التوجه ، والإخلاص في الدعاء ، والثقة بالله))[1] .

عمدَ خليل الله إلى تقديم نفسه في الدعاء : { رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ } وإنما فعل الخليل ذلك لأنه أسرع في الاستجابة[2] . ثم انّه (عليه السلام) لجأ إلى العموم في الدعاء فقال :{ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ..... } وإنّ العموم في الدعاء يعد أدباً من آداب الدعاء[3] . بل هو من أكثر الآداب أهمية في الدعاء ، ومن أكثر الأسباب قوة في استجابة الدعاء[4]

من الملوحظ أنّ الأصوات تتعلق بالمعاني ؛ لأن القوّة التعبيريّة للألفاظ لا تتأتى من معانيها فحسب ، بل من طبيعة أشكالها الصوتية أيضاً[5] . فكل من الأصوات والمعاني مرتبطة ببعضها ارتباطاً لا يسمح بالتفرقة[6] . وهذا ما نجده في تعبير هذه الآيات ، إذ العلاقة والتناسب بين ما يتسم به جو هذا الدعاء من اطمئنان وخشوع وهدوء تكون عليه النفس في خطابها ورجائها وتوسلها لله تبارك وتعالى ، وبين إيقاع هذه الآيات الذي إتسم بهدوئه ولينه ورزانته[7] . بذا أصبح التعبير في منتهى الجمال والذوق .

دعاء أيّوب (عليه السلام)

لمّا اشتدت الحالة في نبي الله أيوب (عليه السلام) ووقع في تلك المحنة العجيبة التجأ إلى الله الذي يرفع ويضع في خضوع وتذلل ومسكنة[8] . وفي ذلك يقول سبحانه : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ }[9] .

---

(١) الدعاء ، تربية وعبادة : مؤسسة البلاغ : ٢٥ .
(٢) ينظر : شرح المراح في التصريف :العيني : ١٩ .
(٣) ينظر : القيامة في القرآن : الشهيد دستغيب : ٨١ .
(٤) ينظر : الدعاء ، حقيقته ــ آدابه ــ آثاره : الأستاذ علي موسى الكعبي : ٤٣ .
(٥) ينظر : الأفكار والأسلوب : أ . ف ستشرين : ٤٥ .
(٦) ينظر : قواعد النقد الأدبي : لاسل كروجي : ٣٩ .
(٧) ينظر : المكان ودلالاته في القرآن الكريم : ٣٥٥ .
(٨) ينظر : الأنبياء ، حياتهم قصصهم : عبد الصاحب الحسيني العاملي : ٢٣٩ .
(٩) الأنبياء : ٨٣ .

فالذي يلحظ في هذه الآية المباركة أنه (عليه السلام) لمْ يعبّر تعبيراً تظهر منه بوادر الشكوى ، إنما اكتفى بقوله : أنه ابتلى بهذه المصائب وإن الله أرحم الراحمين ، حتى انه لمْ يصرّح بحل مشكلته ، فإنه عالم أن الله عظيم جليل عارف حق عظمته[1].

وهو هنا لا يكثر عن وصف حالته ، ولا يدعو بتغيير حاله ، تأدّباً مع الله تعالى[2] . ولم يقل فاشفني وعافني[3] .

وبهذا فلم يضجّ بما يشكو منه ، ولمْ يصرخ بما يعانيه ، ولمْ يحمله ما يمرّ به منْ أوصاب وأوجاع على نسيان التأدب في الدعاء مع الخالق الكريم ، فأظهر دعاءه بإشارة اتسمت بالخفاء ، ليرفع الله تعالى عنه ذلك البلاء[4] .

ثم إنّ نبي الله أيوب (عليه السلام) حين راعى الأدب في دعائه إذْ لمْ يصرّح بما أراد أتم ذلك الأدب إذ ذكر الله بغاية الرحمة بقوله : { وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ } .

دعاء زكريا (عليه السلام)

قال عز ذكره : { قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا }[5] .

في هذا الخطاب من اللطف مالا يخفى . إذ افتتح نبي الله زكريا (عليه السلام) دعاءه بكلمة (ربّ) وإنما فعل ذلك للاسترحام[6] . وهذا من الأدب في الخطاب . واستعمل التعبير بلفظة (الوَهَن) ولمْ يستعمل (الضَعْف) بقوله : { إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى } . وإنّ (وَهَن) أحسن وأنسب من (ضَعْف) لأنها أخفّ وأسهل[7] . بسبب ((تماثل الحركة

---

(١) ينظر : الأمثل : ٨ / ٣٠٩ .
(٢) ينظر : أدب القصة في القرآن الكريم : د. عبد الجواد محمّد المحص : ٩٣ .
(٣) ينظر : مدارج السالكين : ابن القيّم الجوزيّة : ٢ / ٣٨٠ .
(٤) ينظر : القصص القرآنية : آية الله جعفر السبحاني : ٢ / ١٧ .
(٥) مريم : ٤ ــ ٦ .
(٦) ينظر : الميزان : ١٣ / ١٧٥ .
(٧) ينظر : الإعجاز القرآني : د. أحمد جمال : ٢٨٥ ، ومنْ أساليب التعبير القرآني : د. طالب محمد إسماعيل الزوبعي : ٣٦٤ .

في حروفها وهي (الفتحة) بعد (الواو) وبعد (النون) على حين تفصل (الضمة) الثقيلة بين فتحة (الضاد) وفتحة (الفاء) في ضعف))[1] ، وهذا يمنح التعبير خفة وسلاسة ورقة مما يتناسب مع جوّ الدعاء . زيادة على هذا فإنّ الهنّة التي يضفيها صوت (الهاء) تعطي معنى يوحي بالضعف في الخطاب لا يعطيه صوتا : (الضاد) و (العين) في الشدة التي في لفظة (ضعف)[2] فيكون التعبير أليق في الاسترحام .

وجاء التعبير بلفظ (العَظم) لأنه العمود الذي يرتكز عليه البدن ، ولأنّه القوام وأصل البناء ، وهو أكثر شدة بالجسم ، فأن أصابه الوهن فما دونه أكثر وهناً منه[3] .

وفي التعبير بقوله : { وَهَنَ ٱلْعَظْمُ } دون (وهنتِ العِظام) سبب يستدعي تحليله ، وهو إضفاء معنى شمول الوهن على العظام كلها ، لأن للمفرد استغراقاً أكثر عموماً وشمولاً من استغراق الجمع[4] . وهذا أنسب في التضرع والشكوى لله .

عبّر (عليه السلام) عنْ بلوغ هرمه بقوله : { وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا } . وقوله هذا جاء بطريق الاستعارة[5] . وما ((أجملها من استعارة إنها في غاية الوفاء وآية في الأداء ويزيدها بهاءً ووفاءً بكمال المقصود إسناد الاشتعال إلى الرأس وإخراج الشيب مميزاً ، دون إضافته إلى الرأس ، إذ لو قال واشتعل شيب الرأس لمْ يفهم من تجلل الرأس كله شيباً وإنارة ليكون دليلاً على بلوغ هرمه))[6] ، زيادة على هذا فانّ لفظ (اشتعل) ذو دلالات إيحائية أضفت على هذه الآية المباركة جمالاً وروعة[7] .

إن معنى قوله تعالى ــ على لسان زكريا (عليه السلام) ــ : { وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا } أنني ما كنت في دعائي لك فيما سبق ذا خيبة وحرمان ، وأنت يا ربّ قدْ عودتني على الإجابة الحسنة ، ولمْ تخيبني في سؤالك ولمْ تحرمني من

---

(١) من أساليب التعبير القرآني : ٣٦٤ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه .
(٣) ينظر : الكشاف : ٥/٣ .
(٤) ينظر : مفتاح العلوم : السكاكيّ : ١٠٤ .
(٥) ينظر : روح الدين الإسلامي : عفيف عبد الفتاح طبارة : ٣٨ .
(٦) تلخيص التمهيد : ٢ / ٣٠٧ .
(٧) ينظر : المفردة القرآنية بين التنكير والتعريف بال : عبد المحسن لفتة فارس (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة : ٣٠٩ .

الإجابة[1] . وهذا أدب وحُسن في الخطاب ، لأنه (عليه السلام) أظهر الجميل الذي طالما مَنّ الله به عليه .

دعاء موسى (عليه السلام)

يبين الله تعالى ذكره دعاء نبيه موسى (عليه السلام) عند توجهه إلى أرض مدين وفي ذلك يقول : { فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ }[2]

فآستهل (عليه السلام) دعاءه بكلمة (ربّ) التي تناسب ما يمر به في ذلك الوقت ، إذ الجوع والفقر وغير ذلك . لأن كلمة (ربّ) مشتقة من التربية والتنشئة[3] . فإنّ الله الذي رباه وأنشأه لا يتركه في مثل هذه الظروف . وبذا اتسم التعبير ببراعة الاستهلال ، الذي بدوره يعد أدباً من آداب الدعاء[4] .

وعلى الرغم مما لاقاه من التعب منْ سيره في الطريق ، وعلى الرغم من جوعه[5]. حتى أنّ خضرة بقلة الأرض بدت ترى من شفيف صفاف بطن موسى (عليه السلام) لما عليه من الهزال وتشذب اللحم[6] . وقد ملأ دلو بنتي شعيب (عليه السلام) على الرغم منْ كل هذا كان في منتهى التأدب ، فلم يصرّح في دعائه أنه يطلب : (كذا وكذا) وإنما عبر بقوله : { رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } فقام بكشفه عن حاجته وترك الأمر للطفه تبارك وتعالى[7] .

---

(١) ينظر : القصص القرآنية : آية الله جعفر السبحاني :٢ / ٣٥٤ .
(٢) القصص : ٢٤ .
(٣) ينظر : البرهان : الكرماني: ١٠٣ ، ودرة التنزيل وغرة التأويل : الاسكافي : ٤٢ ــ٤٣ .
(٤) ينظر : أسرار العارفين في شرح كلام مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) : السيد جعفر السيد محمد باقر بحر العلوم : ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .
(٥) ينظر : الأمثل : ٧ / ٥٥٩ .
(٦) ينظر : مجمع البيان : ٧ / ٢١٩ .
(٧) ينظر : الأمثل : ٧ / ٥٥٩ .

دعاء امرأة فرعون (عليها السلام) :

قال تبارك وتعالى : { وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ }[1] .

إنّ امرأة فرعون (عليها السلام) ابتدأت دعاءها بكلمة (ربّ) مما يجعل الدعاء أكثر تأدباً . لأن هذه الكلمة تأتي في بداية الدعاء لغرض الاسترحام[2] . وعندما طلبت الجنة ، فإنها طلبتها عند الله[3] . فـ ((الآخرون يطلبون الجنة .... لكن هذه المرأة أرادت الله ثم طلبت عند الله بيتاً ، لم تقل : (ربّ ابن لي بيتاً في الجنة) ولم تقل : (ربّ ابن لي بيتاً عندك في الجنة) ، بل قالت : { رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ } ذكرت أولاً عند الله ثم تكلمت عن الجنة))[4] .

يلحظ من قولها : { وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ } أنها لم تطلب أن ينجيها الله تعالى من فرعون فحسب ، إنما منْ عمل فرعون كذلك[5] . وفي قولها : { وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ } لم تطلب النجاة من القوم الظالمين فحسب ، بل طلبت النجاة من القوم الظالمين ومن أعمالهم كذلك ، بحسب قرينة : { وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ } لجواز حذف ما يُعلم[6] .

إنّ هذا الخطاب يظهر ما كانت عليه امرأة فرعون (عليها السلام) من أدب في خطابها ومناجاتها مع الله تعالى ، الأمر الذي يفصح عن اللطف في أسلوب دعائها .

---

(١) التحريـــــم : ١١ .
(٢) ينظر : الميزان : ١٣ / ١٧٥ .
(٣) ينظر : جمال المرأة وجلالها : الشيخ جوادي آملي : ١٣٦ .
(٤) المصدر نفسه : ١٣٧ ــ ١٣٨ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه .
(٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٣٨ .

المبحث الثاني

في خطاب الله أنبياءَه وأولياءَه

سنحاول في هذا المبحث الوقوف عند لطف الخطاب الصادر من الله تعالى ذكره ، فقد جاء تعبير الخطاب الربانيّ الموجه إلى أنبياء الله تعالى وأوليائه غزيراً بلطفه ورفقه ، إذ انه جاء على درجة عالية من التأدب ، فالله جل وعز عمد إلى مخاطبة أنبيائه وأوليائه مترفقاً بهم متحنناً عليهم مكرّماً إياهم مستعملاً بذلك أرق التعابير وأوحاها وأكثرها دلالة على اللطف واللين ، وكيف لا يكون خطاب الله سبحانه بهذه الكيفية وهو صادر عنه وهو اللطيف الخبير إلى أنبيائه وأوليائه اللذين هم أقرب ما يكونون إليه تقدّست أسماؤه .

إن الأنبياء والأولياء (عليهم السلام) غالباً ما يتعرضون للأذى والتضييق من كفار ومعنادي أقوامهم ، وقد يصل الأذى والتضييق الذين يتعرضون له إلى أشدّ ما يكون ، من هذا نجد أن الله تبارك وتعالى يخاطب أنبياءه وأولياءه متلطفاً معهم مترفقاً بهم ، فيأتي بعضه حاملا في طياته إيناساً وتصبيراً لنفوس الأنبياء ، وأكثر ما نجد هذا في الخطاب الرباني الموجه إلى الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ويجيء بعض الخطاب الرباني يحمل طابع الوصف والثناء كما يظهر هذا في وصف لين النبي (صلى الله عليه وآله) ، ومن الخطاب الرباني الموجّه إلى أولياء الله (عليهم السلام) ما يكون مكسواً ومملوءاً بمعاني الرعاية والإكرام والتفضيل والإنعام كما يظهر هذا ويتجلى في خطاب الله تبارك وتعالى الموجه إلى أهل بيت النبي (عليهم السلام) . ومن الخطاب الرباني الذي يكون موجهاً إلى الأنبياء (عليهم السلام) ما يكون زاخراً بمعاني التطمين والحفظ والرعاية والإنعام وهذا ما سنلاحظه في خطاب الله تعالى الموجه إلى كليمه موسى (عليه السلام) .

إن الله تبارك وتعالى لطيف في خطابه مع جميع عباده فكيف إذا كان الأمر يتعلق بأنبيائه وأوليائه (عليهم السلام) الذين جعلهم هداة له وأدلاءً عليه لجميع خلقه ، ولذلك نجد خطاب الله تعالى لأنبيائه وأوليائه (عليهم السلام) أنه يجيء بأعلى سمات اللطف في الخطاب والتأدّب فيه ، ونستطيع أن نقول انّ خطاب الله عز شأنه الموجه إلى أنبيائه وأوليائه (عليهم السلام) ينبعث وينبع من محبة الله تعالى وإكرامه لهم وهم المطيعون لأوامره والمطبقون لأحكامه والمقيمون لعدله .

خطاب الله لرسوله (صلى الله عليه وآله) :

إن الخطاب اللطيف الموجّه إلى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) يشغل حيزاً واسعاً في القرآن الكريم ، ولا عجب في ذلك فإن ما لاقاه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) من ظلم وعدوان ونفاق لم يلقه أي نبي من الأنبياء (عليهم السلام) ، لذا لجأ القرآن مثلاً إلى تسليته وتصبيره ، ثم لمكانته وهو حبيب إله العالمين كان القرآن في رعاية دائمة له وإكرام مستمر وما إلى ذلك ، وبذا ارتأينا الكلام على هذا الموضوع حسب الآتي :

وصف لينه (صلى الله عليه وآله)

قال تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ }[1] . إن لفظة : { فبما } ذات دلالة على لطف الخطاب في هذه الآية . فإن (ما) في هذه الآية زائدة من ناحية الإعراب ، لكنها ليست كذلك في النظم[2] . لأن الحرف الزائد في استعمال القرآن يفضي بدلالة ذات خصوصية في الموضع الذي يأتي فيه[3] . وبذلك فإنّ في زيادة هذا الحرف نوع من التصوير الذي لو رفع من التعبير لاختفى أغلب حسنه وروعته ، فالمقصود في تعبير هذه الآية إيصال صورة لما كان عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منْ لين مع قومه ، وذلك من رحمته تعالى ، فجيء بوصف لفظي تأكيداً وتفخيماً لمعنى اللين ، وذلك الوصف هو (ما) ، أضف إلى ذلك فانّ النطق في التعبير بـــ (ما) يتسم بالعناية والانعطاف إذ لا يفتتح هذا التعبير بمعنى أكثر حسناً ممّا هو عليه[4] .

عند التأمل في هذا التعبير نجد أنّ هناك تناسباً كبيراً ، وذلك بين سياق المعنى الذي هو وصف لين الرسول (صلى الله عليه وآله) وبين صوت المد الألف في (فبما) . لأنّ صوت الألف منْ أصوات اللين[5] . أضف إلى ذلك فأنّ صوت المدّ هـــذا يمنـــح

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .
(٢) ينظر : تلخيص التمهيد : ٢ / ٢٣١ .
(٣) ينظر : (ما) في النحو العربي وأساليب استعمالها القرآني : مهند ذياب فيصل (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة : ١٣٥.
(٤) ينظر : تلخيص التمهيد : ٢ / ٢٣١ ــ ٢٣٢ .
(٥) ينظر : فقه اللغة : د. عبد الحسين المبارك : ٨٦ .

التعبير حـــيزاً أكبـــر فـــي النطق ، مما يحمل إيناساً وتشويقاً وتطييباً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في هذا الخطاب ، بخلاف ما لو قيل : (فبرحمة) .

تصبيره وتسليته (صلى الله عليه وآله) :

يخاطب الله تبارك تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) فيقول : { وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا }[1] .

إن هذا التعبير يتضمن تسلية الرسول (صلى الله عليه وآله) وتأييده من أجل أنْ لا تنفذ المخاوف إلى قلب الرسول الطاهر لما يواجهه من عدوان[2] . يظهر ذلك من تعبير قوله تعالى { فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا } إذ إنه تعبير لطيف جداً ، يبين شمول رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكامل الحماية والعطف من الله تعالى[3] .

يتباين التعبير القرآني في استعماله حروف الجرّ ، فمرة يستعمل حرف الجر (على) ومرة يستعمل (الباء) إن هذا التنوع في أسلوب التعبير لا يستطيع ادراكه وتذوقه الا صاحب الفطنة الذي يدقق في سلوك تعبير القرآن[4] . واستعمل القرآن في هذا التعبير (الباء) دون (على) فقال : { بِأَعْيُنِنَا } . فإنّ معنى ذلك أنك بمرآنا يا رسول الله لا يغرب علينا أي شيء من الأشياء مما يمر بحالك ، ولسنا نغفل عنك[5] . وفي هذا كمال العطف والرفق والأدب .

---

(١) الطـــور : ٤٨ .
(٢) ينظر : النظرة القرآنية للمجتمع والتأريخ : محمد تقي مصباح اليزدي : ٤٧٠ .
(٣) ينظر : الأمثل : ١٣ / ٢٩٤ .
(٤) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ١٧٦ .
(٥) ينظر : الميزان : ١٩ / ١٣ .

إكرامه ورعايته (صلى الله عليه وآله) :

يخاطب الله رسوله (صلى الله عليه وآله) خطاباً ينضح لطفاً وأملاً ورضا[1] فيقول سبحانه : { وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ }[2] .

فنجد أنّ التعبير القرآني في الآية الأولى والثانية قد ربط بين الظواهر الكونية والمشاعر النفسية ، إذ أقسم بالضحى وسجو الليل وهما الأكثر صفاء ، فيتم التراسل بين شعور النفس والإحساس بالطبيعة فتملأ نفس رسول الله الكريم يقيناً واطمئناناً[3] .

ويلحظ في قوله تعالى { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ } أن الفعل ودع ذكر مفعوله وهو (الكاف) أمّا الفعل قلى فلم يذكر مفعوله ، فلم يقلْ سبحانه : (قلاك)[4] . وقد وقع الاختلاف بين النحويين لتعليل ذلك ، فمنهم من أوضح أن ذلك لتبيين المعنى ، أي أنّ الخطاب موجه للرسول الكريم ، ومنهم من أوضح أنّ ذلك رعاية للفواصل ، والأمر غير ذلك لأن القرآن لا يلجأ لذلك لرعاية فواصل آياته على حساب معناه[5] . ويمكن ((القول بأنّ الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف وتقتضيه حساسية معنويّة مرهفة ، بالغة الدقة في اللطف والإيناس ، وهي تحاشي خطابه لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس : ما قلاك . لما في قلى من معنى الطرد والإبعاد ... أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق مع رجاء العودة واللقاء))[6] .

يتضمن تعبير قوله تعالى : { وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ } إكراماً لرسول الله الكريم ، لأن لفظ (الربّ) تدل على التربية والتوجيه القيم ، فجيء بكلمة (الربّ) التي تتسم بالخصوص ، وهذا يعطي اطمئناناً لرسول الله الكريم منه سبحانه[7] .

---

(١) ينظر : إشراق من القرآن الكريم : السيد محمود الطالقاني : ١٤٧ .
(٢) الضحى : ١ ــ ٨ .
(٣) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ٢٠٦ .
(٤) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : د. فاضل السامرائي : ١٥٧ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه .
(٦) التفسير البياني للقرآن الكريم : د. عائشة عبد الرحمن : ١ / ٣٥ .
(٧) ينظر : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : ١٥٨ .

ويلحظ في هذا التعبير عدم تحديد حقيقة العطاء أو كنهه ، يظهر ذلك من حذف المفعول الثاني في الفعل (يُعطي) وهذا يدل على الاطلاق والعموم في الإعطاء[١] . وهذا تكريم لا يضاهيه تكريم .

ويشير الله سبحانه إلى بعض النعم العظيمة التي أنعم بها على رسوله (صلى الله عليه وآله) في قوله : { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ } ومن هذه النعم أنّ كفله عمّه أبو طالب (عليه السلام) وقام بتربيته ، وقد تجلى هذا المعنى في الآية الأولى[٢] . ويشع الفعل (آوى) الوارد في الآية المباركة بدلالة الأمن والملاذ والاستعانة والحماية والأمن ، وجميع ما ذكر يتضمن استقراراً وسكينة[٣] . وليس ثمة تعبير أشفق وأدب من هذا .

خطاب الله لأهل البيت (عليهم السلام) :

يقول سبحانه : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا }[٤] .

إنّ هذا الخطاب من الله جلّ وعلا لأهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد اتفق على ذلك علماء الدين الإسلامي والتفسير[٥] . وقد جاء بمنتهى التلطف والتأدب . إذ افتتح تعبير الآية الكريمة بأداة الحصر (إنما) وهذا يدل على أن هذا الوصف يخص أهل البيت (عليهم السلام) . ويشير الله سبحانه في قوله : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ } إلى ارادته التكوينية ، أي أنّ أهل البيت (عليهم السلام) بسبب رعاية الله وأعمالهم الطاهرة لا يقدمون على فعل المعصية ، على الرغم من قدرتهم على ذلك ، مثلما لا نجد صاحب عقل يضع جمرة نار في ثغره[٦] . وبذا يحمل التعبير غاية الإكرام والرعاية ، أضف إلى هذا فانّ القرآن استعمل حرف الجرّ (عن) الذي يدل على البعد دون (منْ) وفي هذا دلالة على أن أهل البيت (عليهم السلام) بعيدون عن الذنوب بصورة مطلقة لا يفكرون فيها أبداً .

---

(١) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ٢٠٨ .
(٢) ينظر : الميزان : ٢٠ / ٣٥٣ .
(٣) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ٢٠٨ ــ ٢٠٩ .
(٤) الأحزاب : ٣٣ .
(٥) ينظر : الأمثل : ١٠ / ٣٩١ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه : ١٠ / ٣٩٠ .

ويلحظ في قوله تعالى : { أَهْلَ ٱلْبَيْتِ } حذف حرف النداء ، فلمْ يقل سبحانه : (يا أهل البيت) إنما قال : { أَهْلَ ٱلْبَيْتِ } ويبدو لنا أنّ هذا يوحي بدلالة قرب أهل البيت (عليهم السلام) من الله تعالى ، فإنّ هذا الحذف لم يكنْ اعتباطياً في كلام الله ، وهذا في منتهى التفضيل وتمام الإكرام .

خطاب الله لموسى (عليه السلام) :

يخاطب الله تعالى نبيه موسى (عليه السلام) خطاباً طويلاً ، وسنحاول تبيين مواطن التلطف من خلاله ، منْ ذلك أنّ الله سبحانه قال : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ }[1] . فعبر بسؤال مبسط يفيض لطفاً وحبّاً ، وهو في الوقت نفسه يغمر نفس الكليم (عليه السلام) إطمئناناً ، في الحالة التي كان فيها مغموراً هيجاناً واضطراباً لأن ذلك كان تقديماً لأمر في غاية الأهمية[2] .

إنّ موسى (عليه السلام) حين طلب من الله ما يلزمه في ذلك الوقت الذي كان جالساً فيه للمرّة الأولى على مائدة ضيافة الخالق الكريم[3] . أجابه الله بقوله { قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ }[4] . فقام بتلبية جميع متطلباته بتعبير قصير يفيض بالحياة ، منْ غير تقييد أو شرط ، ويُلحظ أنّه سبحانه كرّر اسم موسى (عليه السلام) وبذا أتمّ له الاجابة وجمالها وأبعد المُبهم عَن قلبه الطاهر ، وياله منْ شوق وفخر أنْ يُكرّر الله اسم عبده[5].

ويشرح الربّ الرحيم النعم التي منّ بها على نبيه موسى (عليه السلام) إلى أن يقول : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي }[6] . ولمْ يكن المعنى أن الله ألقى على موسى (عليه السلام) شيئاً في الواقع[7] . بل المعنى كما ورد عن الإمام أبي جعفر الباقر (عليه

---

(١) طه : ١٧ .
(٢) ينظر : الأمثل: ٨ / ١١٨ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه : ٨ / ١٢٦ .
(٤) طه : ٣٦ .
(٥) ينظر : الأمثل : ٨ / ١٢٦ .
(٦) طه : ٣٩ .
(٧) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي : ٢٢٤ .

السلام) انه قال : ((وكان موسى لا يراه أحد ألا أحبه ، وهو قوله تعالى : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي } فأحبته القبطيّة الموكلة به))[1] ، وبذا فالتعبير يتضمن تمام الإنعام والرعاية .

ثم يقول تبارك وتعالى : { وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ }[2] . ومعنى الآية المباركة ــ والله سبحانه أعلم ــ أنْ تتم تربيتك برعايتنا ورؤيتنا ، ولمْ يكن ثمة شيء بغائب عن رؤيته تعالى ، وإنما تفضي الآية بخصوصية رعاية موسى (عليه السلام) بصورة شديدة ، وكثرة حفظه ، ولأن حفظ الشيء ورعايته يتم غالباً بالعين ، عبر تبارك وتعالى بلفظ العين بطريق المجاز والاستعارة[3] .

---

(١) النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين : السيد نعمة الله الجزائري : ٢١٢ .
(٢) طه : ٣٩ .
(٣) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٢٢٤ .

المبحث الثالث

في خطاب الأنبياء أقوامهم

أمر الله تعالى رسله عليهم السلام بأن يترفقوا في دعوة خلقه وأن يتلطفوا بهم ويصبروا على أذاهم[1] من هنا فقد لجأ الأنبياء (عليهم السلام) إلى استعمال جميع الوسائل الرقيقة والأساليب اللطيفة من أجل إنجاء أقوامهم وهدايتهم ، ومهما اشتدت المواجهة وبلغت درجة الغلظة والقسوة لدى أقوامهم فأنهم لم يتركوا أي وسيلة مقنعة مستعملين بذلك التأدب في خطابهم مما يدل ويفصح عن اللطف في خطاب الأنبياء أقوامهم .

إنّ نظرة القرآن تؤكد أصالة فطرة الإنسان ، وتعتقد أن الإنسان مهما بلغ في درجة انحرافه ومسخه فإنه يضمّ داخل أعماقه فطرة إنسانيّة مكبلة مغلولة[2] ومن هنا فإن الأنبياء جميعهم اتجهوا في الدعوة لرسالاتهم مستعملين بذلك الحكمة وحسن الموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن[3] . ((وقد تناول القرآن الكريم معالم جديدة في تفاصيل هذه الحكمة ... منها حسن الخطاب ، والصبر على الأذى ، والإعراض عن الجاهلين ، والمحافظة على العلاقة والصلة ، ومراعاة مستوى المخاطبين))[4] ، وكل هذا ينم عن أدب عال للأنبياء في مواجهتهم أقوامهم مما يصبّ ويفضي في لطف تعبير القرآن الكريم .

ونستطيع القول إنّ خطاب الأنبياء (عليهم السلام) الموجه إلى أقوامهم ينبعث وينبع من قلوبهم الرقيقة الحانية المملوءة بالرحمة والعطف على أقوامهم ، وبذلك كانت خطاباتهم أمثلة رائعة في لطف الخطاب وأدبه ، إذ لم يترك الأنبياء (عليهم السلام) في خطابهم من أجل هداية أقوامهم أي وسيلة من أجل الإقناع والتأثير ، وقد كانوا مجسدين بخطابهم للخلق النبيل ، والأدب الرفيع ، والالتزام بالأسلوب الخالي من خدش كرامة المخاطبين ، واعتماد التواضع ، فكانوا بغاية الرأفة والشفقة بأقوامهم الأمر الذي ينم عن تأدب كبير يفصح عن اللطف في التعبير .

---

(١) ينظر : ملاك التأويل : أبي جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي : ١٩٤ .
(٢) ينظر : المجتمع والتاريخ : الشهيد مرتضى مطهري : ١٥٩ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٨٧ .
(٤) المجتمع الإنساني في القرآن الكريم : السيّد محمد باقر الحكيم : ٤٧٩ .

خطاب موسى (عليه السلام) :

يخاطب نبي الله موسى (عليه السلام) قومه خطاباً ينضح لطفاً ورفقاً وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ }[1] .

فقد كان نبي الله موسى (عليه السلام) في منتهى التأدب مع قومه . إذ نجد أنّ خطابه ينحى عدة أساليب ، وأول هذه الأساليب التحبب والتقرب إلى قومه ، وذلك من خلال استعماله عبارة : { يَٰقَوْمِ } كي يوصل خطابه إلى قلوبهم مباشرة[2] . وهو بهذا استعمل هذه العبارة الرقيقة من أجل إقناع قومه والتأثير فيهم .

ويستمرّ خطاب نبي الله موسى (عليه السلام) لقومه ، وبعد أن يبين لهم أنهم ظلموا أنفسهم بقوله : { إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ} يخاطبهم قائلاً : { فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ .... } . إذ يلحظ في هذه الآية أنّ أوامر الله تعالى للتوبة شديدة لم يسبقها نظير في تاريخ أنبياء الله (عليهم السلام)[3] . ولكن مما ((لا شك فيه أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة ، لأن بني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيهم موسى (عليه السلام) ثم نسوا ذلك دفعة ، وخلال فترة قصيرة من غياب النبي انحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلهي))[4] . إنّ هذه التوبة بهذه الطريقة الشديدة تعدّ رحمة لهم ونعمة من الله عليهم موازنة بما قاموا به من جرم بعبادتهم عجل السامري ، لذا فالتعبير يتضمن ترحماً بهم وإشفاقاً عليهم وهذا في غاية اللطف .

إذا تأملنا الآية المباركة نجد أن موسى (عليه السلام) عندما أمر قومه بالتوبة ختم كلامه بما يناسب هذا الموضوع وذلك بإيراد كلمة (التوّاب) التي هي أسم من أسماء الله تعالى . إنّ هذا ينتج تراكماً دلالياً في تقديم النصح بالتوبة لهم . وهذا يفصح عما في هذا الخطاب من الرحمة والإشفاق وهذا في منتهى الرفق واللطف .

---

(١) البقـــرة : ٥٤ .
(٢) ينظر : الخطاب القرآني : د. خلود العموش : ٤٥٠ .
(٣) ينظر : الأمثل : ١ / ١٨٨ .
(٤) المصدر نفسه .

خطاب نـــوح (عليه السلام) :

نلتقي بأسلوب خطاب نبي الله نوح (عليه السلام) الذي إتسم بالوداعة والسماحة ، الذي حمل فيه لقومه طبيعة ما جاء من أجله[1] . قال تعالى :{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }[2] .

فبدأ (عليه السلام) بعبارة : (يا قوم) ليذكرهم بقرابته معهم ليدركوا نصحه لهم وأنه يريد الخير لهم والإشفاق بهم ، فإضافة لفظ القوم لضمير نوح (عليه السلام) كان تحبيباً وترقيقاً لكي يهتدوا[3] . وعبّر (عليه السلام) بقوله : { إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } فبنى كلامه على أنه خائف عليهم ليدل على شدة النصيحة لهم والحرص على سلامتهم ، فجعل الذي يضرّ بهم كأنه يضرّ به ، فهو يخافه كخوفهم على أنفسهم ، وكان هذا القول في بداية خطابه لهم ، ومن المحتمل أنّ قوله هذا بعد أن قاموا بتكذيبه ، والمعنى إنْ لمْ تكونوا تخافوا عذاباً فإني أخاف العذاب عليكم[4] .

ومع أنّ قوم نوح قاموا برمي نبيّ الله بالضلال المبين ، وعمدوا إلى تأكيد ذلك بشدة إذ قالوا : {إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ }[5] . إلا أنّ نوحاً (عليه السلام) واجه ما همْ فيه من التعنّت والخشونة بهدوء اللحن ومتانة اللهجة التي تفيض تحبباً وترحماً فأجابهم في معرض خطابه معهم بنفي الضلالة عن نفسه ، وباستدراكه أنّه رسول منه جلّ وعزّ : {قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ }[6] .

---

(١) ينظر : أسلوب الدعوة في القرآن الكريم : محمد حسين فضل الله : ٩٠ .
(٢) الأعراف : ٥٩ ــ ٦٣ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٨ / ١٨٨ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٨ / ١٩٠ .
(٥) ينظر : الميزان : ٨ / ٢٦٦ .
(٦) ينظر : الأمثل : ٤ / ٤٠٥ .

يلحظ في تعبير قوله : {أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ } أنه (عليه السلام) أوضح نصيحته وتبليغه لقومه وعدم انقطاعه عن ذلك ، وعبّر بقوله : { وَأَنصَح } ليعرفهم بمدى نصحه لهم وإن لمْ يشعروا بذلك ولمْ يهتدوا ، وبذا ضمّن كلامه جواب كلامهم بتعبير لطيف بيّن لمن شمله التوفيق[1] . زيادة على ذلك زيد بحرف (اللام) في قوله :{ وَأَنصَحُ لَكُمْ } ليبالغ ويدلّ على نصيحته المحضة لهم ، وليبين أنّ نصيحته جاءت خالصة لهم لا يقصد بها إلا جانبهم ، فإنّ من النصائح ما يعود نفعها لصاحبها فتأتى لكلا المنفعين وليس ثمة نصيحة أشدّ محضاً من نصيحة الله جلّ وعلا وأصحاب رسالاته[2] .

خطاب هـــود (عليه السلام) :

قال تقدست أسماؤه : { وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[3] .

عند التأمّل في هذا الخطاب من نبي الله هود (عليه السلام) نجده يشع بدلالة اللطف إذ بدأ خطابه بتعبير : { يَٰقَوْمِ } فاستغل أواصر القرابة بينه وبين قومه ، وبالطبع فهي تنبغي حرصاً شديداً منه لنفعهم ، وخوفاً شديداً مما يوقع بهم الضر والسوء[4] . مما يدل على عطفه وترحمه عليهم . وعلى الرغم ممّا رمى به قوم هود نبيهم إذ قالوا : { إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ } وهـــم في تعبيرهـــم هذا فاقوا فـــي

---

(١) ينظر : ملاك التأويل : ١٩٧ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٨٨ .
(٣) الأعراف : ٦٥ ــ ٦٩ .
(٤) ينظر : خطاب الأنبياء في القرآن الكريم : د. عبد الصمد عبد الواحد : ٢٢ .

الوقاحة قوم نوح ، فإنّ نوحاً رماه قومه بالضلال في رأيه ، وهوداً رماه قومه بالسفه ، غير أنّه لم يترك ما به من أدب النبوة ولم ينس وقاره ، فقال لهم { يَٰقَوۡمِ } عطفاً عليهم وحرصاً على نجاتهم { لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ } فجاء بكلامه من دون أي مؤكد ، مكتفياً بردّ ما اتهموه به ، ومثبتاً ما هو عليه من دعوة رسالته[1] . وفي ((إجابة الأنبياء عليهم السلام ــ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء وترك المقابلة بما قالوا له مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم ــ أدب حسن وخلق عظيم))[2] .

أخبر (عليه السلام) قومه أنه ناصح لهم إذ قال : { وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ } . ولفظ النصح والنصيحة يأتي تعبيراً عن النيّة الحسنة وقصد الخير عملاً وقولاً ، ويغلب حمل لفظ النصيحة على الكلام الذي يتضمن تنبيها لمن يوجه له الخطاب للذي يحدث له النفع ويزيل الضرر عنه[3] . ويلحظ أن نبي الله هود (عليه السلام) عبّر بالاسم بقوله : { نَاصِحٌ } ولم يعبّر بالفعل : (أنصح) ليدل على أنّ فعل النصح يلزمه ولا يفارقه ، ولمْ يفض الفعل بدلالة ذلك فجاء التعبير بالاسم[4] . وهذا يوحي بدلالة شدة خوفه عليهم ، وحرصه على إنجائهم .

خطاب صالـــح (عليه السلام) :

بأسلوب تأدبيّ لطيف توجه نبي الله صالح (عليه السلام) بدعوته إلى قومه ، قال تبارك وتعالى : { وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ }[5] .

---

(١) ينظر : الميزان : ٨ / ٢٦٧ .
(٢) الكشاف : ٢ / ٨٩ .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٨ / ١٩٤ .
(٤) ينظر : ملاك التأويل : ١٩٧ .
(٥) الأعراف : ٧٣ ــ ٧٤ .

فبدأ خطابه بعبارة : { يَٰقَوۡمِ } التي تحمل استعطافاً لهم ، وتأثيراً في مشاعرهم ، وتستجلب ميلهم ، مما يدعو إلى الإسراع في التجاوب مع دعوته التي جاء بها وطاعته (عليه السلام) . ثم لجأ إلى أكثر الأساليب إقناعاً وتأثيراً ، ألا وهو إظهار البيّنة التي جعلها الله جلّ وعز آية على صدق دعوته : { قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ .....} .

ونجد في الآية المباركة إيراد التعبير بقوله : { لَكُم } ويبدو لنا أنّ هذا يبين لهم استفادتهم وانتفاعهم منها . لأن تلك الناقة كما ورد أنها كانت إذا شربت الماء في يومها ترفع برأسها وتنفجج للقوم فيأخذون بحلب لبنها شاربين مدّخرين إلى أن تملأ جميع ما لديهم من آنية[1] . ويلحظ أنّ الأرض قد أضيفت إلى لفظ الجلالة في التعبير : { أَرۡضِ ٱللَّهِ} وهذا يشير إلى أن ناقة صالح (عليه السلام) لا تزاحم أيّ أحد من قوم صالح فهي تأخذ علفها من الصحراء ليس غير[2] . وكل هذا يوحي بأدب عال في الخطاب .

وقد لجأ (عليه السلام) إلى تذكيرهم بنعم الله جلّ وعز : { وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا ..... } . وإنّ أسلوب اللجوء إلى تذكيرهم بنعم الله سبحانه ــ الذي اختص باستخلافهم في الأرض في هذا التعبير ــ أسلوب في منتهى التأثير في النفوس ، وتحريك الشعور النبيل في نفوس المخاطبين ، فيذكرها بما أنعم وأحسن لها الخالق كثيراً ، وينبغي على من أكرمه ربه أن لا يقابل ذلك الإكرام بالشرك الذي هو مخالف لكرمه ونعمه سبحانه ، بل يجعل نفسه كما أراد الله أنْ تكون ويكرمها كما أكرمها خالقها[3] . إنّ استعمال هذا الأسلوب يوحي بمدى إرفاق وإشفاق هذا النبي الكريم بقومه .

---

(١) ينظر : مجمع البيان : ٤ / ١٥٥ .
(٢) ينظر : الأمثل : ٤ / ٤١٤ .
(٣) ينظر : خطاب الأنبياء في القرآن الكريم : ٣٢ .

خطاب شعيب (عليه السلام) :

قال تعالى ذكره :{ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }[1] .

فإن نبي الله شعيب (عليه السلام) كان يُعرف أنه خطيب الأنبياء وذلك لمراجعته الحسنة في مواجهته قومه[2] . وهذا واضح في هذا النص . إذ ابتدأ بعبارة : { يَا قَوْمِ } وفي هذا دلالة على اشفاقه عليهم وترحمه بهم ، لأن تعبيره هذا يذكرهم بآصرة القرابة بينه وبينهم . ثم قام بترغيبهم ببيان أنهم إن امتثلوا لما يأمرهم به وأنْ يجتنبوا ما ينهاهم عنه فأنّ ذلك ينتج النفع والخير لهم ، أو أنّ ذلك ينفعهم عند الله عز ذكره وذلك قوله : { اعْبُدُوا اللَّهَ.... ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[3] . ثم إنه لجأ إلى تذكير قومه بالنعم التي أنعم الله عليهم بها فقال : { وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ } بهدف التأثير في نفوسهم ، لأن من أنعم عليه الله لا ينبغي له أن يقابل ذلك الأنعام بالكفر والفساد في الأرض .

إنّ نبي الله شعيب (عليه السلام) انذر قومه من أنّ يجتثهم الله من هذه الأرض فقال : { وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } لأنهم على علم بقصص الذين كانوا قبلهم من الأمم التي كذبت رسلها ، فبعضهم أهلكوا بغرق وطوفان ، وبعضهم برجم بالحجارة ، وبعضهم أخذوا أخذا[4] . وهذا كان تحذيراً وإنذاراً يدل في الوقت نفسه على مراعاته مصلحتهم وخوفه الشديد وحرصه على سلامتهم ونجاتهم .

---

(١) الأعراف : ٨٥ ــ ٨٧ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٢ / ٩٦ .
(٣) ينظر : خطاب الأنبياء في القرآن الكريم : ٧١ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه : ٧١ ــ ٧٢ .

المبحث الرابع

خطابات أخرى

خطاب هابيل (عليه السلام) لقابيل :

قال سبحانه : { وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ }[1] .

هذه الآيات المباركة تكشف عن لطف هابيل (عليه السلام) وأدبه في خطابه ، فمع أنّ قابيل قد قابل هابيل بغلظة وجفاء إذ قال : { لَأَقْتُلَنَّكَ } ألا أنّ هابيل أجابه بقوله : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ } . وهو بهذا قابل قوله بأن قام بتقديم النصيحة إليه ، مبيناً أنّ عدم قبول قربانه حادث بسبب علة في العمل ، ولا ذنب له برفض قربانه[2] . ويبدو أنّ هابيل قد سلك في تعبيره جانب الترغيب بأسلوب غاية في الروعة والأدب ، منْ خلال بيان تقبل الله من المتقين .

ويلحظ في تعبير قوله : { لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ .... } دلالات كثيرة أفاض بها تعبير الآية ، فتقديم (إليّ) يفيد بأنّ بسط قابيل يده كان لهابيل ليس غير ، وعلل هذا البسط لقتل هابيل ، أمّا ما يخصّ هابيل فنجد تأخر الجار والمجرور وارتباطه ببسط اليد بصوره مباشرة ، مع الإشارة إلى أنّ صفة هذا البسط الدوام على الثبات[3] . ويُفهم من هذا أنّه مع إصرار قابيل على بسط يده لقتل هابيل ،فإنّ هابيل مصرّ على عدم بسط يده لقتل قابيل ، فقابل في خطابه إصراره على قتله بإصراره على عدم قتله ، وهذا منتهى الرفق والرحمة والعطف . وفي الأخص أنه عبّر عن عدم بسطه بلفظ اسم الفاعل فقال {مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ} وهذا يدل على أنه لا يقدم على فعل ما يكسبه هذا الوصف الشنيع ولذلك أكد كلامه بالباء المؤكدة بالنفي[4] .

---

(١) المائدة : ٢٧ ــ ٢٩ .
(٢) ينظر : الأمثل : ٣ / ٤٨٦ .
(٣) ينظر : أدبية النص القرآني : مولود زايد البيضاني (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة : ٦٤ .
(٤) ينظر : الكشاف : ١ / ٤٨١ .

إنّ هابيل (عليه السلام) بقوله : { إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِى وَإِثۡمِكَ ... } لمْ يشأ منْ قابيل أيّ قبيح ، ولمْ يشأ قتله ، وإنّما قصد بقوله : { أَن تَبُوٓأَ } أي جزاء ما أقبلت عليه من القبح وعقاب ذلك القبح[1] . وكذلك شاء منْ أخيه إثارة العوامل والنوازع الخيرية في نفسه ــ نفس قابيل ــ علّ ذلك يمنعه عن فعل ما أراد[2] . وهذا يبين شدة خوف هابيل على إنقاذ أخيه مما فيه ، وحرصه على إنجائه .

خطاب نـــوح(عليه السلام) لإبنه :

بخطاب يشعّ لطفاً وحنوّاً خاطب نبي الله نوح (عليه السلام) إبنه لينقذه من الكفر والغرق ، قال سبحانه : { وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ } [3] .

فبدأ خطابه بتعبير : (يا بنيّ) مصغر كلمة (إبن) وهذا يفصح عن شفقته ورحمته عليه[4] . لأنّ كلمة (بنيّ) تدل على ما في قلب نوح (عليه السلام) من عطفٍ وتحنّن وترفقٍ من الأب بولده[5] .

أمّا إبن نوح فلمْ يقابل ما ناداه به أبوه نوح حين قال له : { يَٰبُنَيَّ } بقوله (يا أبت) بل عبر قائلاً : { سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ } ، باعتقاده أنّ هلاكه من الماء وليس من الله تعالى ، وأنه يعتصم بالجبل وليس برحمته وطاعته سبحانه[6] . وعلى الرغم من قوله القاسي الشديد البعيد كل البعد عن الأدب ، كان ردّ نوح (عليه السلام) في منتهى الترفق والتأدب ، فقام بنصحه وتحذيره في الوقت نفسه ، فقال : { لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ... } . وهو بهذا أوضح له أمر تلك الداهية ، وقطع ما عنده منْ

---

(١) ينظر : متشابه القرآن ومختلفه : الشيخ محمد علي بن شهر آشوب : ٢١٦ .
(٢) ينظر : أمثال القرآن الكريم : الشيخ محمد متولي شعراوي : ٣٨ .
(٣) هـــود : ٤٢ ــ ٤٣ .
(٤) ينظر : الميزان : ١٠ / ٢٧٣ .
(٥) ينظر : منْ أساليب التعبير القرآني : ٢١٤ .
(٦) ينظر : المصدر نفسه .

أطماع خالية ، ليحاول أنْ يبعده عن اللجوء إلى العلل التي لا تغني له أي شيء ، لإرشاده إلى أنْ يعوذ بالله تعالى[1]

خطاب يوسف (عليه السلام) للعزيز وامرأته :

يلجأ الأنبياء في خطاباتهم إلى الأدب الحسن ، والترفع عن العبارات التي تخدش كرامة الإنسان ، إذ إنّ خطاباتهم منبثقة من القلوب المؤمنة حيث الحنو والترفق والإشفاق مهما بلغ عنف المواجهة[2] . من ذلك خطاب نبي الله يوسف (عليه السلام) مع امرأة العزيز ، قال جلّ جلاله : { وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى }[3] .

فمع أنّ امرأة العزيز اتهمت يوسف بأنْ قصد بها السوء إذ قالت : { مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا }[4] . وقامت بتحريض وتهييج عزيز مصر لكي يؤاخذه ، وهذا ما يظهر من التعبير بقولها : { بِأَهْلِكَ }[5] . مع كل هذا فإنه اكتفى بردّ ما إتهمته به دون أي زيادة على ذلك ، فقال : { هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى } . وعند التأمّل في التعبير يلحظ أنه (عليه السلام) اختار لفظة { هي } دون لفظة (هذه) أو (أنت) أو غير ذلك من الألفاظ السارية في المعنى نفسه ، وهذا يدلّ على مدى شيمة حياء نبي الله يوسف (عليه السلام) وابتعاده مطلقاً عن أنْ يشهر بها ، مع أنها تعمدت قصد كيدها به[6] .

---

(١) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٣ / ٣٥
(٢) ينظر : منْ أساليب التعبير القرآني : ٢٢١ .
(٣) يوسف : ٢٥ ــ ٢٦ .
(٤) ينظر : الميزان : ١١ / ٦٤ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١١ / ٦٣ .
(٦) ينظر : منْ أساليب التعبير القرآني : ٢٢١ .

خطاب يوســـف (عليه السلام) لصاحبي السجن :

قال تعالى ذكره : { قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1] .

في هذه الآيات المباركة من اللطف ما يستدعي الوقوف عليه . إذ بدأ نبي الله يوسف (عليه السلام) دعوته لصاحبيه في السجن بقوله : { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ } وهو بهذا أنزل الطمأنينة في نفسيهما بأنهما سيحصلان على ما يشغلهما قبل مجيء طعامهما[2] . ثمّ عبّر بقوله : { ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ } ويبدو لنا أنّه استعمل هنا الترغيب بأسلوب رائع ببيان أنّ كلّ ما لديه وما هو عليه إنما هو من الله ، وفي الأخص أنهما كانا يراته من المحسنين ، وهذا منتهى الحسن والرفق والأدب .

ويظهر منْ تعبير القرآن : { إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ } ، ((ملمح لطيف جدير بالوقوف والملاحظة ، وهو أدب النبوة الذي يتمثل في عدم مواجهة الفتيين بشخصيهما ، [على الرغم من كونهما]على ملة القوم ، وإنّما يواجه القوم عامّة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما ، وتلك كياسة وحكمة ولطافة))[3] .

---

(١) يوسف : ٣٧ ــ ٤٠ .
(٢) ينظر : القصص القرآنية : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٤٥ .
(٣) خطاب الأنبياء في القرآن الكريم : ٦٦

ولجأ (عليه السلام) إلى استثارة الدوافع الفكريّة التي تتسم بالمنطق والسلامة ، لكي يحكم صاحبا السجن على وفق الرجوع إلى العدل وإلى عقليهما وفطرتهما ، جاء ذلك منْ خلال استفهام تقريري بقوله : { يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ }[1] . وهو في تعبيره هذا لا يقوم بدعوتهما بطريق مباشر ، وذلك بعرض قضيّة تتسم بموضوعيّتها ، بالتساؤل بتقرير أعبادة الأرباب المختلفين التي تقهر ويؤثر بها ولا تؤثر، خير أم عبادة الله سبحانه : { ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ }[2] . فكان بهذا في منتهى التأدب في عرض دعوته ، والحرص على انجائهم ، لأنه من غير شك أنّ فطرة الإنسان السليمة تعرف الإله الواحد والربّ الأوحد ليس غير[3] .

خطاب يوسف (عليه السلام) وإخوته :

قال تبارك وتعالى : { فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ }[4] .

إنّ إخوة يوسف قدْ تلطفوا في خطابهم مع أخيهم يوسف (عليه السلام) وذلك من خلال التعبير بقولهم : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ } إذ قاموا بالتمهيد لما جاءوا لطلبه ، فعرضوا فاقتهم وبؤسهم ليرققوا قلبه وينالوا ما يريدون ، فابتدأوا بهذا ، والعزيز بمعنى الأمير[5]

---

(١) خطاب الأنبياء في القرآن الكريم : ٦٦ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٦٧ .
(٣) ينظر : المصدر نفسه
(٤) يوســـف : ٨٨ ــ ٩٢ .
(٥) ينظر : مع الأنبياء في القرآن الكريم : عفيف عبد الفتاح طبارة : ١٨٣ .

ثم قالوا له : { مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ } . وهنا وضعوا انفسهم في موضع تذلل وخضوع ، وعمدوا إلى المبالغة في الكلام الرقيق ليستعطفوه ويسترحموه فصرّحوا بما أصابهم وأصاب أهليهم ، ثم صرّحوا بما قدموا به منْ قلة بضاعتهم[1] .

لجأ إخوة يوسف إلى استرآف يوسف واسترحامه بتعبير قولهم : { فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ... } . فالمعنى أيّ بما تمنّ به علينا منْ كرمك ، ومنْ تصدّقك الوفير ، ولا تقمْ بطلب الأجر منا ، بلْ قمْ بطلبه من الله جلّ وعلا فإنّ الله يحب المتصدقين[2] .

أمّا نبي الله يوسف (عليه السلام) فقدْ قابل إخوته بمثل ما قابلوه من الكلام اللطيف ، بل أكثر من ذلك . إذ قال لهم : { هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ } فقام بمجرّد تذكيرهم من غير أنْ يوبخهم ويؤاخذهم ، ليبيّن لهم كيف منّ الله عليه وعلى أخيه وهذا منْ فتوّة يوسف العجيبة[3] .

بعد أن عرفوا أنّه أخوهم وآعترفوا بخطئهم خاطبهم بقوله : { لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ } . أي رُفع عنكم العتاب والعقاب اليوم ، فقوموا بالاطمئنان وأريحوا ضمائركم ، ولا تسمحوا لمصائبكم وآلامكم الماضية بالدخول إلى نفوسكم[4] .

ويلحظ أنّه نفى التثريب عنهم بلفظ (اليوم) ليكون دلالة على الصفح والإغماض عن انتقامه منهم[5] . ومنْ أجل أنْ يوضح لإخوته بأنه ليس الوحيد الذي قام بالعفو عنهم ، إنما الله جلّ وعلا عفا عنهم كذلك ، وذلك قوله : { يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ }[6] . وكل هذا رأفة بهم ، وترحم وتحنن عليهم .

---

(١) ينظر : الميزان : ١١ / ١٠٣ .
(٢) ينظر : القصص القرآنية : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٦٩ .
(٣) ينظر : الميزان : ١١ / ١٠٤ .
(٤) ينظر : القصص القرآنية : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٧١ .
(٥) ينظر : الميزان : ١١ / ١٠٤ .
(٦) ينظر : القصص القرآنية : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٧١ــ ١٧٢ .

خطاب عيسى لأمه مريم(عليهما السلام) :

قال سبحانه : { فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا }[1] .

فهذا خطاب في منتهى العطف والرفق والحنوّ ، من نبي الله عيسى لأمّه مريم (عليها السلام)[2] . افتتحه بقوله : { أَلَّا تَحْزَنِى} وهو بهذا يقوم بتسليتها لما مرّت به من حزن وغم شديدين[3] . ثم قال : { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا } . ولفظ السريّ يرد تفسيره ضمن معنيين : فيفسر بجدول الماء ، ويفسر بالشيء الموصوف بالشرف والرفعه ، والمناسب لسياق تعبير الآية هو المعنى الأول ، وتدل عليه قرينة : (كلي ، واشربي) وأي تقدير كان فإنّ تعبير الآية جاء تطييباً لنفس مريم العذراء (عليها السلام)[4] .

و يلحظ في تعبير الآية الكريمة : { وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا } أنّ الألفاظ ((لم تخرج عن معانيها الحقيقية ، إلاّ أنّ هذه الألفاظ تكتسب دلالة إيحائية ضمن تعبير الآية ، فقال تعالى : { وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ } ولمْ يقل : وهزي بجذع النخلة ، فلفظة إليك فيها دلالة معنوية توحي بالعطف والحنوّ ... ولفظة تساقط خفيفة في النطق على الرغم من وجود حرفي الاستعلاء : القاف والطاء ، وإنّ همس السين ومدّ الألف ، ثم كسر صوت القاف ، خفف من تفخيم هذا الصوت ، وكذلك خفف من إطباق صوت الطاء ، وكان لفعل مجاورة الحروف على صفات مختلفة أدى إلى حسن صياغتها واستحسان السمع بها))[5] .

---

(١) مريـــم : ٢٤ ــ ٢٦

(٢) الظاهر من السياق أنّ الضمير في { ناداها } الذي هو الفاعل عائد لعيسى (عليه السلام) وليس للروح الذي سبق ، وممّا يؤيد ذلك تقييد الكلام بقولها : { من تحتها } لأن هذا أنسب مع حالة المولود ووالدته عند وضعها له منه مع حالة الملك ، وممّا يؤيد ذلك الضمائر العائدة لعيسى (عليه السلام) : ينظر : الميزان : ١٤ / ١٩٠ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٥) الصورة السمعية ودلالاتها في القرآن الكريم : عباس حميد السامرائي (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة بغداد : ١٩

عند تأمل التعبير القرآني : { فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا } يلفت الانتباه تكرار صوت الفاء في بداية الألفاظ : (فكلي ، و فامّا ، وفقولي ، وفلن) ويبدو لنا أنّ هذا يوحي بدلالتين :

الأولى : أنّ (الفاء) في : (فكلي ، وفقولي) يخفف من صيغة الأمر فيجعله أمراً تأدبيّا رقيقا ليّنا على نفس مريم العذراء (عليها السلام) في حالة المخاض ، على عكس ما لو قيل : (كلي ، وقولي) .

الثانية : أنّ (الفاء) من الأصوات المهموسة[1] . وورود في أربعة مواضع في بداية الكلمات المذكورة يجعل التعبير رقيقا سلسا حانيا ، مما يلقي بالهدوء والاطمئنان والسكينة في نفس السيدة مريم (عليها السلام) .

وممّا يلفت الانتباه في هذا التعبير تكرار صوت (الياء) في نهاية الألفاظ : (فكلي، و إشربي ، و قرّي ، وقولي) . وإنّ (الياء) من الأصوات الصائتة التي تتسم بامتداد الصوت بها أكثر من الأصوات الصامتة[2] . ممّا يمنح التعبير إيقاعاً جميلاً هادئاً حانياً يتناسب في الخطاب به مع حالة السيدة مريم (عليها السلام) في ذلك الوقت .

---

(١) ينظر : المعجم وعلم الدلالة : د. سالم سليمان الشماخ : ٢٩ .
(٢) ينظر : التشكيل الصوتي في اللغة العربية : سلمان العاني : ١١٥ .

خطاب إبراهيم (عليه السلام) :

إتجه نبي الله إبراهيم (عليه السلام) في بداية دعوته إلى آزر . وهو عمّ إبراهيم أو جده لأمّه[1] . قال تعالى ذكره : { وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا }[2] .

عرض (عليه السلام) دعوته بأكثر الأساليب سموّا في لطف الخطاب[3] . ذلك أنه بدأ خطابه بأن طلب باعثه على عبادة الأصنام لكي يقطعه بفحمه ، ثم لجأ إلى الكياسة عارضاً له بأنّ الذي لا يسمع ولا يبصر وليس له غنى بشيء ، لنْ يكون حقاً للعبادة[4] .

ويلحظ في تعبيره بقوله : { يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ..... } أنه قام بدعوته ملتمساً هدايته منبّهاً إيّاه برفق وتواضع ، فلمْ ينعته بالجهل ، ولمْ ينعت نفسه بإطلاعه بكنه الحقائق ، واختصاصه بفائق العلم ، ولمْ يخاطبه بما هو فيه من كفر قبيح وعمى ، بل لجأ إلى السماحة عن ذكر ذلك لأنه مما لا يرضيه[5] .

عند الوقوف في تعبيره بقوله{ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا } نجد أن عبارة { يَـٰٓأَبَتِ } التي كررها في خطابه ذات دلالة عن الرغبة الشديدة في إبعاده عن عقاب الله ، هذا وقد أنهى خطابه بوعيد زاجر بتأدب وترفق ، ويظهر منْ

---

(١) ينظر : تفسير شبّر : ٢٦٩ .
(٢) مريم : ٤١ ــ ٤٧ .
(٣) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ١١٥ ــ ١١٦ .
(٤) ينظر : كتاب الطراز : العلويّ : ٣٣٨ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٣٣٨ ــ ٣٣٩ .

قوله : { إِنِّيَ أَخَافُ } نسبته الخوف له ، شفقة وخوفاً عليه ، وعبّر بقوله : { يَمَسَّكَ } وهو أكثر لطفاً منْ سواه[1] .

أمّا آزر فقد أظهر في ردّه على إبراهيم (عليه السلام) جهلاً وتكبراً وعناداً ، منْ غير تأمّل في خطاب إبراهيم ، متمسكاً بما هو عليه من الظلال ، ومشنعاً على إبراهيم لرغبته عن تلك الأباطيل ، ومهدداً إيّاه بالرجم والتوعد ، ثم أنه أمره أنْ يغيب عنه بحيث لا يراه[2] وبالرغم من كلّ هذا أجابة النبي العظيم إجابة بمنتهى التأدب واللين : { سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا } . فأي خطاب ألطف من أن تواجه القسوة والعنف بالرفق والعطف والرجم والتهديد بالسلام والاستغفار .

زيادة على هذا فإن استعماله لكلمة (ربّ) يفيض عطفاً وإشفاقاً لأن هذه الكلمة توحي بالعناية والاهتمام . لأنها مشتقة من التربية أي التنشئة .

خطاب هارون لموسى(عليهما السلام) :

كان خطاب نبي الله هارون (عليه السلام) لنبي الله موسى (عليه السلام) في غاية اللطف في التعبير ، إذ جاء مكسوّا بطابع التأدب ، جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى { قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى }[3] .

ففي هذه الآية المباركة يلحظ أنّ هارون (عليه السلام) بدأ خطابه بقوله : { يَبْنَؤُم } وإن ((في إثبات التعبير بنسبته إلى الأمّ (يا ابن أم) على الرغم من كونه أخاه لأبيه وأمه استعطاف لموسى وترفيق لقلبه))[4] . فهارون (عليه السلام) إنما لجأ إلى نسبة

---

(١) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ١١٧ .

(٢) ينظر : الحوار في القرآن الكريم : إسماعيل إبراهيم علي محمد السامرائي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الشريعة ــ جامعة بغداد :١٠٠.

(٣) طـــــه : ٩٤ .

(٤) علم المعاني : بسيوني عبد الفتاح فيود : ٣٠٠ .

موسى (عليه السلام) إلى الأم لأن ذكر الأم أبلغ استعطافا[1] .

ويستمر نبي الله هارون (عليه السلام) بخطابه لأخيه موسى (عليه السلام) فيقول : { لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي } . إذ يلحظ أن أسلوب النهي في قوله { لَا تَأْخُذْ } أريد به الالتماس ، وذلك لأن ليس فيه استعلاء ولا إلزام ولا تذلل ولا خضوع ، حيث كان النهي من هارون لموسى (عليهما السلام) وهما في المرتبة نفسها أي متساويان فيها ، وبهذا فإن هارون (عليه السلام) إلتمس من أخيه موسى (عليه السلام) أن لا ينزل العقوبة به ، لأنه خشي إن هو خرج عليهم أن يتفرقوا ، وبذا فإن السرّ البلاغي الذي يكمن خلف التعبير بصيغة النهي في مقام الالتماس هو إظهار ما لهارون من حرص على ترقيق قلب أخيه موسى ، وماله من رغبة قويّة أصيلة لأن يعفو عنه ويسامحه[2] .

خطاب امرأة فرعون(عليها السلام) لفرعون وملئه :

قال عز ذكره : { وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }[3] .

إنّ امرأة فرعون (عليها السلام) استعملت تعبيرا رقيقا شفافاً وفي منتهى العطف والتأدب ألا وهو قولها : { قُرَّتُ عَيْنٍ } . لأن أصل (قرة) من القرّ الذي هو البرد ، وهو يتضمن السكينة[4] . ويقال هذا التعبير لمن يُفرح به[5] . ويلحظ في قولها :

---

(١) ينظر : مجمع البيان : ٤ / ١٩٠ .
(٢) ينظر : علم المعاني : ٣٠٠ .
(٣) القصص : ٩ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٦٢ (قرّ) .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٦٦٣ (قرّ).

{ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَآ } أنها استعملت الأداة (عسى)التي تفيد الترجي فيظهر أنها ترجت من فرعون ومن معه ألا يقتلوا موسى (عليه السلام) وهذا يشير إلى تأدبها في خطابها .

ويبدو لنا أنّها عمـــدت إلى إثارة عاطفـــة الأبوة لدى فرعون في قولهـــا :{أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا } . وفي الأخص أنهما كانا مفتقدين لوجود الابن[1] . فاستغلت تلك العاطفة بنقله إلى ذلك الجوّ الذي يكون حيث تواجد الولد ، وبهذا استعملت أسلوباً عاطفياً مؤثرا ، وكلّ هذا نابع من قلبها المشفق المؤمن الرقيق .

خطاب إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) :

لمّا رأى نبي الله إبراهيم (عليه السلام) في رؤياه أنه يذبح إبنه إسماعيل (عليه السلام) توجّه إليه بخطاب يشع رفقاً وعطفاً وأدباً ، قال تعالى : { يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ }[2] .

فبدأ خطابه بلفظة تفيض بالترفق والتحبُّب في النداء : { يَٰبُنَيَّ } التي هي تصغير لفظة (إبن)[3] . ويلحظ في الآية المباركة أنّ الخليل (عليه السلام) قام بعرض ما رآه في منامه على ولده إسماعيل عرضاً ، من أجل أن يكون ذلك أطيب ، ومن أجل تهوين ذلك عليه ، بدلاً من الأخذ بالقسر والذبح بالقهر[4] .

وفي مقابل هذا الخطاب الحنون اللطيف من الأب إبراهيم (عليه السلام) . فقد أجاب الابن إسماعيل (عليه السلام) جواباً في منتهى الطاعة لأبيه ، ويظهر هذا من اللفظة الأولى التي هي قوله : { يَٰٓأَبَتِ} وقوله : { ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} بمعنى الذي تؤمر به[5]

---

(١) ينظر : الميزان : ١٦ / ١٨٠ .
(٢) الصافات : ١٠٢ .
(٣) ينظر : من أساليب التعبير القرآني : ٢٢٣ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٢٢٤ .

ويلحظ في التعبير أنّ الفعل جاء بصيغة البناء للمجهول : (تُؤمر) وهذا يوحي بدلالة العموم والإطلاق في إطاعة إسماعيل لأبيه إبراهيم (عليهما السلام) أي كلّ ما تؤمر به من الله دون تعيين وتقييد ، فهذا ما أشار به بناء الفعل للمجهول في قوله : { يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ }[1] .

ويلحظ في قوله : { سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ }[2] . أن حرف (السين) قدْ اقترن بالصيغة (يفعل) ويدّل ذلك على تأكيد وقوع هذا الفعل وعلى الإمتثال المؤكد لكلّ ما يؤمر به ، والصبر على أي شيء يحتمل أن يقع[3] .

وفي الوقت الذي كان فيه إسماعيل (عليه السلام) في أقصى حالات الانقياد والامتثال لأمر أبيه الذي هو أمر الله تعالى تراه في الآية المباركة يفصح عن تواضع كبير وأدب عال ، فيتوجه بلسان الراجي الداعي بمشيئة الله لأن يجده أبوه من الصابرين ، وهذا هو حال إسماعيل الذبيح (عليه السلام) بحضرة خليل الرحمن (عليه السلام) .

---

(١) الصافات : ١٠٢ .
(٢) الصافات : ١٠٢ .
(٣) ينظر : من أساليب التعبير القرآني : ٢٢٤ .

الفصل الثالث

بين شدّة الخطاب وليْنه

في الخطاب الدّنيويّ والأخرويّ

المبحث الأوّل : في الخطاب الدنيويّ

المبحث الثاني : في الخطاب الأخرويّ

إنّ القرآن الكريم يتفنّن في استعمال أساليبه التعبيريّة في الخطاب ، ونحن الآن بصدد الوقوف عند أسلوبين متباينين من أساليب القرآن التعبيرية وهما الشدة واللين في الخطاب ، فالقرآن الكريم لا يستعمل خطابه على وتيرة واحدة وأسلوب معين ، فهو كتاب قائم على أساس من الترهيب والترغيب والعقاب والثواب والوعيد والوعد ، ومن يتأمّل ويُعمل النظر في الآيات القرآنية المباركة يجد هذين الأسلوبين ظاهرين واضحين في التعبير القرآني .

فالقرآن الكريم يتباين في أسلوب خطابه في الشدّة واللين ، وذلك على وفق سياق الموضوع الذي يرد فيه الخطاب وأصناف المخاطبين ، وهذا الأمر يظهر جليّا في هذه المعجزة الربانيّة الخالدة ، فالقرآن الكريم يشتدّ ويقسو في خطابه في مواطن ، ويلين ويلطف في خطابه في مواطن أخرى ، فحين يتطلّب الأمر أن يشتد القرآن في خطابه يجيء الخطاب القرآني في أشد وأقوى ما يكون ، وحين يتطلب الأمر أن يلين القرآن في خطابه يجيء الخطاب القرآني في ألين وألطف ما يكون ، وقد بلغ القرآن في كلا هذين الأسلوبين ــ الشدّة واللين ــ غاية الإبداع والتفنّن والتفرّد مستعملاً بذلك أساليب عديدة ووسائل متنوعة في التعبير .

ويضم الخطاب القرآني الذي يتباين في شدته ولينه الخطاب الدنيوي أي الذي يكون موجهاً في الحياة الدنيا ، والخطاب الأخروي أي الذي يكون موجهاً في الحياة الآخرة ، ولكل من هذين الموضوعين مواضيع عديدة ومتنوعة .

وبما أننا نبحث في اللطف في التعبير لذا ارتأينا أنْ نجعل هذا الفصل موازنة بين شدة الخطاب من جهة ، ولينه من جهة أخرى ، وذلك بقصد الوقوف والتعرف بصورة أكثر على اللطف في التعبير ، وقدْ قدّر لنا أنْ نجعل هذا ضمن مبحثين ، يتعلق الأوّل بالخطاب الدنيوي ، والثاني بالخطاب الأخروي .

المبحث الأوّل

في الخطاب الدنيويّ

شدّة الخطاب للمؤمنين وليّنه لهم :

يلجأ القرآن إلى استعمال الشدّة مع المؤمنين مثلما يستعمل اللين ــ كما سنرى لاحقا ــ من ذلك ما جاء في قوله تعالى : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ }[1] ، فالذي يلحظ في تعبير الآية الأولى الاستفهام الذي جاء بصيغة الإنكار بلهجة شديدة على المؤمنين في قوله سبحانه { مَا لَكُمۡ }[2] . واستعمال القرآن للفظة : (أثاقلتم) . فإنّ هذه اللفظة في فنيّة أدائها تفضي بظلال المعاني التي تصحب فعل التثاقل ، فنظام حروفها يدلّ على المعنى المقصود ، فما في اللفظة من تشديد ومدّ ووقف يُوحي بتثاقل المؤمنين الشديد ، وكأنّ حركة المخاطبين متجهة نحو الأسفل ، في وقت يجب أنْ تكون فيه متجهة نحو الأعلى ، وكأنّ المخاطبين مربوطون بحبل ذي غلظة فلا يقدرون على الخلاص منه[3] . لقد جاءت لفظة (أثاقلتم) في سياق تعبير يصبّ في المعنى المقصود ويُظهر ما في النفس من خبايا ، ففي الآية المباركة استفهام خرج عن المعنى الحقيقي ليؤدي معنىً بلاغيّا وقدْ حمل هذا المعنى تقريعاً وتوبيخاً ، والمعنى من ذلك حدوث فعل ذميم جعل الآية المباركة توبّخ المؤمنين ، ومن غير شكّ فإنّ اللفظة تعلل لنا ذلك ، وتقدم لنا كشفاً لفعل المخاطبين الذميم الذي اقتضى توبيخهم[4]

وتستمرّ الآية المباركة في توبيخ المؤمنين على ما فعلوه : { أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } فإنّ أداة الاستفهام (الهمزة) في قوله تعالى { أَرَضِيتُم } قدْ خرجت لإفادة معنى الإنكار التوبيخي . لأنّ المخاطبين قدْ عملوا عملا استحقوا به توجيه التوبيخ والتقريع لهم[5]. واستعمل القرآن حرف الجرّ (مِنْ) التي أفادت معنى البدليّة ، أي بدل الآخرة[6] . إنّ هذا يُبيّن أنّهم جعلوا الحياة الدنيا مع دناءتها بدلاً من الآخرة مع عظمتها وجزيل ثوابها .

---

(١) التوبة : ٣٨ ــ ٣٩ .
(٢) ينظر : تحفة البيان في خطاب القرآن لأهل الإيمان : الشيخ عليّ حيدر المؤيّد : ٤٣١ .
(٣) ينظر : من جماليات التصوير في القرآن الكريم : محمد قطب عبد العال : ٩ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه .
(٥) ينظر : معاني النحو : د. فاضل صالح السامرائيّ : ٤ / ٢٠١ .
(٦) ينظر : جامع الدروس العربيّة : مصطفى الغلاييني : ٣ / ٥٢٦ .

ويلفت النظر استعمال الفعل الماضي (رضيتم) الذي يدلّ على أنّهم في أقصى الركون والانشداد إلى الدنيا لأنّهم راضون بذلك ، وفي الأخص أنّ الفعل جاء بصيغة الماضي . الذي يدل على تحقق الوقوع للفعل[1] .

ثمّ يلجأ تعبير القرآن للهجة أكثر شدّة وأسلوب جديد في التهديد { إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . فإن هذا التعبير يتضمّن سخطاً عظيماً على الذين تثاقلوا من خلال وعدهم بعذاب مؤلم مطلق يتضمّن عذاب الدنيا والآخرة[2] . ويبدو لنا أنّ التعبير القرآني استعمل أسلوباً نفسيّاً من أجل إنزال الرُعب والحسرة والندم في نفوس المخاطبين ، وذلك عن طريق معنى استبدالهم بقوم غيرهم ممّن هم خير منهم وأفضل في التضحية في سبيل الله إنْ لمْ ينفروا .

وإلى جانب ما رأينا من شدّة الخطاب نجدُ القرآن يلين ويلطف في الخطاب مع المؤمنين ، قال جل وعزّ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }[3] ، ففي هذه الآية المباركة جمال وبلاغة يسهمان في جعل المؤمن مُنتشياً بطربه وشوقه إلى الجنة[4] . إذ ابتدأ التعبير بـــ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } لأجل تشريف المخاطبين وتكريمهم ، واضفاء العذوبة واللين على هذا التعبير[5] . فإنّ خطاب الله سبحانه بـــ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } يفصح عن جوّ وزخم من الحبّ ، ويحمل في داخله تصويرا عاطفيّاً كبيراً ، وكأنّ المخصوصين بهذا الخطاب همْ أهل وأحبّاء[6] . ويلحظ أنّ التعبير القرآنيّ قدْ خصّ المؤمنين بهذا الخطاب ، لأنهم الوحيدون الذين يقومون بكلّ هذه الأفعال ، من ركوع وسجود وعبادة وفعل خير دون سواهم ، لذا جاءت خصوصيتهم بهذا الشأن[7] . وكلّ هذا تشريف وتكريم لهم .

---

(١) ينظر : النحو الوافي : عبّاس حسن : ١ / ٤٦ .
(٢) ينظر : الكشّاف : ٢ / ٢٠٤ .
(٣) الحج : ٧٧ .
(٤) ينظر : تحفة البيان في خطاب القرآن لأهل الإيمان : ٤٤٨ .
(٥) ينظر : القرآن وعلم النفس : عبد الوهاب حمودة : ٣٠ .
(٦) ينظر : آيات الإيمان في القرآن الكريم : خولة صالح صيهود الكنانيّ (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة القادسية : ٤٠ .
(٧) : ينظر : تحفة البيان في خطاب القرآن لأهل الإيمان : ٤٤٨ .

وقد استعمل القرآن جملة : { لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ } ذلك أنّ الفلاح في الحياة الآخرة لأصحاب الإيمان دون سواهم[1] . واستعملت الأداة (لعلّ) في هذه الآية الكريمة لأجل استمراريّة الرجاء وبقائه لأنّ عباد الله المؤمنين ما بين خوف ورجاء في جميع الأوقات[2] . قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) : ((ما من مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفة ونور رجاء لوْ وُزن هذا لمْ يزد على هذا ولوْ وُزن هذا لمْ يزد على هذا))[3] ، وبهذا فاستعمال أداة الترجي (لعلّ) التي اقترنت بالفلاح ــ في هذه الآية ــ ينتج تأثيراً كبيراً طيّباً على قلوب المخاطبين ، وكأنّ تعبير الآية مُرسل إلى القلب مباشرة من دون أيّ حاجز .

إنّ التلاؤم الصوتيّ والانسجام الموسيقيّ ملمح جماليّ في كتاب الله الكريم ، يرتبط بالإيقاع ارتباطاً وثيقاً ، فيتحدد أداء التعبير في سياق القرآن ، فإيقاع القرآن الهادىء يتلاءم مع الموضوع المعدّ لأجله[4] . وهذا ما نجده في هذه الآية ، إذ نجد إيقاعاً هادئاً منساباً ليّناً ، يتلاءم مع الليونة والتلطف ، وهذا ناتج عن تكرير صوت (الواو) في كلّ من الألفاظ : (آمنوا ، واركعوا ، واسجدوا ، واعبدوا ، وافعلوا) . لأنّ (الواو) من أصوات المدّ[5] . والمدّ في حقيقة أمره صنف من اشباع الموسيقى الذي يؤدي إلى تطريب الآذان وتنشيط العقول[6] . وبذا أصبح التعبير على ما هو عليه ، حتى أنّ المتأمّل هذه الآية يشعر وكأنّه يُردد كلمة واحدة تحمل نغماً شفافاً حانياً ، الأمر الذي يجعل التعبير في غاية التأثير . لأنّ التلاؤم الصوتيّ هو الذي يبعث الارتياح في النفوس ، حتى وصف الكلام المتلائم صوتيّاً بالحلاوة والطلاوة والعذوبة[7] .

شدّة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين :

يتباين الخطاب الموجّه إلى الكافرين منه إلى المؤمنين ، فيتسم الأوّل بشدّته وقوّته ، والثاني بلينه ولطفه ، فمن الخطاب الموجّه للكافرين قوله تعالى { أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ }[8]

---

(١) ينظر : تحفة البيان في خطاب القرآن لأهل الإيمان : ٤٤٨.
(٢) ينظر : المصدر نفسه .
(٣) تحف العقول عن آل الرسول : ٤٥ .
(٤) ينظر : من جماليات التصوير في القرآن الكريم ٢٤٠ .
(٥) ينظر : الأصوات اللغويّة : د. إبراهيم أنيس : ٣٠ .
(٦) ينظر : من صور الإعجاز الصوتيّ في القرآن الكريم : ٩٣ .
(٧) ينظر : الموازنات الصوتيّة في الرؤية البلاغيّة : د. محمد العمري :٤٤ .
(٨) النجم : ٢١ ــ ٢٣.

، فإنّ هذا التعبير تضمّن في بدايته استفهاماً جاء بصيغة الإنكار مشحوناً بلهجة الاستهزاء[1] . ومعنى التعبير المبارك أتكم لا تقبلون بالإناث إلى أنفسكم فكيف تزعمون أنّ الملائكة بنات الله ، فهل أنّ الذكران لكمْ ولله تعالى الإناث[2] . وقدْ أشار القرآن إلى قسمة الكافرين الظالمة باستعمال (تلك) . وهو إسم إشارة يُشار به إلى البعيد[3] . وفي هذا دلالة على بُعد وغرابة ما ذهب إليه أصحاب تلك القسمة في قسمتهم الجائرة ، وهذا يشير إلى مدى سفاهتهم وجهلهم وفساد عقولهم .

ولمّا كانت تلك القسمة بمستوى تلك الغرابة فإنّ القرآن يحتاج إلى لفظة تعبّر عن تلك الغرابة وبذا وصف القرآن قسمتهم بأنّها : (ضيزى) قال تعالى { تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ }. فإنّ ما في هذه اللفظة من غرابة من أكثر الأشياء في شدّة التلاؤم مع قسمتهم المنكرة تلك ، وإنّ الجملة كلّها تحمل في هيئة نطقها تصويراً لإنكار تلك القسمة وتهكماً بأصحابها[4] .

إنّ لفظة (ضيزى) جاءت متناسبة مع السياق الذي وردت فيه ، لأنّ ((الآية الأولى : { أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ } اشتملت على استفهام إنكاريّ . والآية الثانية : { تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ } اشتملت خاتمتها على التهكم . وهما معنيان متناسبان ، أولهما كالمقدمة لثانيهما. وهذه الكلمة الغريبة ــ ضيزى ــ أليق ما تكون دلالة على التهكم . لأنّها وضعت حالة المتهكم في إنكاره من امالة الرأس واليد بهذين المدّين منها إلى الأسفل والأعلى وجمعت إلى كلّ ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظيّة))[5] .

عند تأمّل قوله تعالى { إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ... } نجد أنّ القرآن يحمل تحقيراً وتهكماً وإهانة لتلك الأسماء ولمنْ قاموا بتسميتها ، فأمّا الأسماء فلشدّة حقارتها أنّ المخاطبين هم الذين قاموا بتسميتها ، وأمّا الذين قاموا بتسميتها فلشدة حقارتهم ووضاعتهم أنّهم عاكفون على أسماء همْ قاموا بتسميتها فهي لا حول ولا قوة .

---

(١) ينظر : الميزان : ١٩ / ٢٠ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه .
(٣) ينظر : دراسات في قواعد اللغة العربية : عبد المهدي مطر : ١ / ٣٦.
(٤) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة : مصطفى صادق الرافعي : ١٨٣ .
(٥) خصائص التعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة : عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني : ١/ ٢٤٩ .

وعند النظر في التعبير بـ : { سَمَّيْتُمُوهَا } نجد تكرار صوت (الميم) ، مرّة بالتشديد ، وأخرى بغير ذلك . والميم صوت متوسط بين الشدّة والرخاوة[1] . وهو صوت مجهور ، والملحوظ أنّ الشفتين تنطبقان بصورة تامّة في نطقه[2] . إنّ هذا ممّا يكسب اللفظة شدّة وقوّة وصعوبة في النطق ، ممّا ينعكس على شدّة هذا الخطاب .

وبعد أنْ وقفنا عند شدّة الخطاب الموجّه إلى الكافرين ، نقف عندَ لين الخطاب الموجّه إلى المؤمنين ، ومن ذلك ما جاء في قوله جلّ وعزّ : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ }[3] ، فمع أنّ الإيمان بالله والجهاد في سبيله واجبات مفروضة ، غير أنّ هذه الآيات المباركة لمْ تلجأ إلى طرحها بأسلوب الأمر ، إنمّا عرضتها عرضاً تجاريّاً يوحي بلطف غير محدود من الله عز ذكره : { هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ } ومن غير شكّ فإنّ النجاة من العذاب الأليم يُعدّ من أكثر الأماني أهميّة لدى كلّ إنسان[4] . زيادة على هذا فإنّ الآية الكريمة لمْ تخلُ من عنصر التشويق . لأنّ هذا ما أفادت به الأداة : (هل)[5] .

إنّ من بدائع أسلوب التعبير في القرآن التصرّف في الجملة ، ذلك التصرف الذي تصبح به قواعد علماء النحو والبلاغة عاجزة عن اللحوق به ، فيجيء بجملة الخبر قاصداً بها معنى الأمر ، للتلطف في الولوج إلى النفوس ، والوصول إلى أبعد الغايات في الخطاب[6] . وهذا ما عليه قوله سبحانه : { تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ } إذ ((جيء بالفعل المضارع لمعنى الأمر ، والمقام يقضي بذلك ويوحي به ، وأسلوب الخطاب من أوّله لطيف المدخل رفيق رقيق ، ألا ترى الاستفهام في جملته المليئة بالرفق والمحبّة ، إنّه لا يناسبها صريح الأمر بحال ، ولذلك جيء بالفعل المضارع لمعنى الأمر))[7] .

---

(١) ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : ١٨٩ .
(٢) ينظر : علم اللغة العام ، الأصوات : ١٣٠ .
(٣) الصف : ١٠ ــ ١٣ .
(٤) ينظر : الأمثل : ١٤ / ١٦٨ .
(٥) ينظر : معاني النحو : ٤ / ٢٠٦ .
(٦) ينظر : نحو القرآن : أحمد عبد الستار الجواري : ٩٩ ــ ١٠٠ .
(٧) المصدر نفسه : ١٠٠ ــ ١٠١ .

إنّ الله سبحانه خالق الإنسان وهو العليم بما في نفسه من أسرار وحقائق وميول ، ومحيط بالاطلاع على ما يُؤثر فيها وتتأثر به وما يُحرّكها من تنبيهات ، فهـو ذو علم بأسرار هذا الإنسان ، وبالنتيجة فإنّه تعالى أعلم بما يُرَغبه ويُؤثر فيه[1] . وقدْ بيّن الله بقوله : { يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } مرحلة الجزاء في الحياة الآخرة ، ففي هذه الحالة يغفر ذنوبهم لأنّها تُعدّ من أكثر العوامل أهميّة بالتسبب بالقلق وعدم ارتياح كلّ من فكر الإنسان ونفسه ، وبطبيعة الحال فإنّه في حصول المغفرة يكون حصول راحة وهدوء واطمئنان الإنسان[2] .

إنّ خطاب القرآن الكريم موجّه إلى النفوس بأسلوب لا تماثله الأساليب البشريّة من جميع النواحي ، ومن أبرز مميّزات ذلك الأسلوب هو كيفيّة تصويره المتصلة بنفوس البشر في المعرفة والتوجيه والتأثير[3] . لقدْ رسم قوله تعالى : { وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً } تصويراً جميلاً رائعاً . لعطاء الله الذي يكون في حصيلة المؤمنين[4]. إذ جنات الآخرة التي تجري الأنهار من تحتها ، ومساكنها الطيّبة ، وللزيادة في الوصف والتشويق عبّر القرآن : { فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ } ، وكلّ هذا ترغيب بقصد التأثير . لأنّ عنصر التصوير هو المجال الشعوريّ الموحي الذي يوجّه عاطفة المخاطب وشعوره للإقناع نفسيّاً وعقليّاً[5] .

إنّ التعبير بلفظ المساكن ووصفها بالطيّبة تعبير يحفز ويداعب نفوس المخاطبين ويحثهم على تطبيق ما جاء في نصّ الخطاب . ذلك أنّ المسكن يُعدّ من أكثر العوامل أهميّة في تحصيل كلّ من راحة وسكينة الإنسان ، حتى انّ ذلك يظهر من أصل اللفظ نفسه : (السكن) الذي هو مأخوذ من مادة (سكون) ومعناها الهدوء[6] . ثم انّ كلمة ((طيّبة : لها معنى واسع جداً يشمل جميع المزايا ومعناها في الأصل : الشيء الذي ترتضيه النفس الإنسانيّة ، ويبعث عند الإنسان (طيب النفس) ، أو أنّ السكن فيها مطهر وصالح في كلّ الأحوال))[7] .

---

(١) ينظر : الإعجاز القرآنيّ أسلوباً ومضموناً : د. شلتاغ عبود : ١٣٧ ــ ١٣٨ .
(٢) ينظر : الأمثل : ١٤ / ١٧٠ .
(٣) ينظر : أسرار التشابه الأسلوبيّ في القرآن : د. شلتاغ عبود : ٢٥٩ .
(٤) ينظر : نفحات قرآنيّة : عليّ محمّد عليّ دخيل : ١٥٦ .
(٥) ينظر : الصورة في التشكيل الشعري : د. سمير علي الدليمي : ٨٧ .
(٦) ينظر : المعاد في القرآن الكريم : الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ : ٤٧٦ .
(٧) المصدر نفسه .

شدّة الخطاب للنّاس ولينه لهم :

قال تبارك وتعالى : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ }[1] ، لا يخفى ما في هذا الخطاب من الشدّة ، ففي قوله تعالى :{ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ } جاء الفعل (زَلزَلَة) على وزن (فعلل) وهو تكرير مقطعيّ يتذبذب اللسان فيه أكثر من مرّة . وقدْ دلّ هذا اللفظ على حدث التزلزل وهو الاضطراب ، وتكرير حروف الفعل يدلّ على معنى الزلل فيه[2] . إنّ هذا التناسب بين صيغة الفعل وبين المعنى الذي يؤديه ــ الذي هو الحركة الشديدة وكثرة تكرّرها ــ أدّى إلى إبراز دلالة معنويّة رهيبة عنيفة مفزعة لزلزلة تلك الساعة . وزيادة على هذا فقد اتسمت لفظة الزلزلة بإيقاع قويّ مزلزل ، نتج ذلك عن نظم اللفظة وصوت (الزاي) المتكرّر الذي يتسم بجهره ، وبسبب إيقاعها الصوتيّ هذا ــ الذي أفرزه صوت (الزاي) وطريقة توزيعه ــ أصبحت اللفظة موحية بذلك الحدث الكونيّ المهول[3] .

لقدْ جاء قوله تعالى : { زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ } على تقدير أنّ الساعة هي صاحبة الفعل ، وكأنّها هي التي تقوم بزلزلة الأشياء[4] . إنّ هذا يحمل دلالة توحي بشدّة تلك الساعة وعظمة أهوالها ، فمنْ شدّتها كأنّها هي التي تحدث الزلزلة . وفي قوله سبحانه : { شَيۡءٌ عَظِيمٞ } نجد أنّ لفظة عظيم ــ التي هي صفة مشبهة تدلّ على الثبات والملازمة[5] ــ تفضي بأنّ عظمة ذلك الحدث ــ زلزلة الساعة ــ شيء ثابت لازم لا يقع عليه التغيير والتبديل ، وفي هذا من التهويل والتخويف ما لا يخفى .

---

(١) الحج : ١ ــ ٢ .
(٢) ينظر : دراسة الصوت اللغويّ : أحمد مختار عمر : ١٠١ .
(٣) الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم : عبد الواحد زيارة اسكندر (رسالة ماجستير مخطوطة)، كلية الآداب ــ جامعة البصرة : ١١٨ .
(٤) ينظر : الكشاف : ٣ / ١٠٧ .
(٥) ينظر : الصرف الوافي : هادي نهر : ١٠٤ ــ ١٠٥ .

وتتضاعف شدّة وصف القرآن لزلزلة الساعة فيقول : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } فاستعمل القرآن الفعل : (تذهل) وهو يحمل في طيّاته وقعاً نفسيّاً قويّاً . لأنّ أصل الذهول الشغل عَن الشيء مصحوباً بالذعر أو غير ذلك[1] . والمعنى إنّ المرضعة تنشغل عن رضاعة رضيعها ، وتقوم بنسيانه حتى كأنّها تلجأ إلى الفرار والهروب بعد إلقائه أرضاً ، أو هي تخرّ أرضاً فينتج عن ذلك عدم رؤيتها له[2] . واستعمل تعبير القرآن لفظة (مُرضعة) دون (مُرضع) لأنّ المرضعة تعني صاحبة فعل الإرضاع المشتغلة به ، فأشار التعبير إلى أنّها قائمة بفعل الإرضاع ومباشرة له بصورة عمليّة ، ولمْ يكن وصفاً مجرّداً كما في مرضع[3] .وقصد ((تعبير القرآن بهذه الصيغة هو : أنّ الساعة تأتي والأم على حال إرضاعها طفلها وهي أشدّ ما تكون حُنوّا عليه فتُذهل عنه لشدّة هول زلزلة الساعة وفي هذا دلالة على فداحة الأهوال وفظاعتها ... وقدْ جاء قوله تعالى : { عَمَّآ أَرْضَعَتْ } توكيداً للمعنى))[4] .

ومن شدّة تصوير القرآن لهول وعظم زلزلة الساعة وصف حال النّاس بحال السكارى : { وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ } . والمعنى أنّهم سكارى من شدّة فزعهم وخوفهم ، وليس همْ سكارى من الشراب[5] . وقدْ جاءت لفظة : (شَديد) في هذا التعبير، وهي تدلّ دلالة صريحة على شدّة الخطاب ، وفي الأخصّ أنّها جاءت على وزن (فعيل) الذي يُعطي دلالة المبالغة في حدوث الفعل .

وبخلاف ما رأينا من شدّة الخطاب الموجّه إلى النّاس ، نرى أنّ القرآن يلين ويرق في الخطاب مع النّاس ، قال جلّ وعزّ : { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ }[6] ، ويبينُ ذلك من خلال ما أفضت به الآية الكريمة منْ صفات جميلة رائعة ، وفي الأخص أنّ هذه الصفات سُبقت بقوله تعالى :

---

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة : ٢ / ٣٦٣ (ذهل) .
(٢) ينظر : الدلالة النفسيّة للألفاظ في القرآن الكريم : ٩٠.
(٣) ينظر : الكشاف : ٣ / ١٠٨ ، وخطرات في اللغة القرآنيّة : ٤٠ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) ينظر : مجمع البيان : ٧ / ٦٧.
(٦) يونس : ٥٧ .

{ قَدْ جَآءَتْكُم } فاقتران الفعل الماضي بـــ (قدْ) . ـــ الذي يدلّ على تحقق وقوع الفعل[1] ـــ يدلّ ويؤكد مجيء هذه الصفات ، وأولى هذه الصفات قوله سبحانه : { مَّوْعِظَة } . والوعظ والموعظة كما جاء عن الخليل بن أحمد عبارة عن التذكير بنعم الله تعالى وطيّباته ، ذلك التذكير الذي يرقّ القلب له[2] . وفي حقيقة الأمر فإنّ كلّ نصيحة وإرشاد يُخلّف تأثيراً في المخاطب ، ويحمل له تخويفاً من عمل السوء ، وترغيباً في العمل الصالح يُطلق عليه موعظة ووعظا[3] . زيادة على هذا فإنّ عبارة : { مِن رَّبِّكُمْ } تفصح عن جوّ من العناية والاهتمام . لأنّ لفظة (الربّ) مشتقة من التربية أي بمعنى تنشئة الشيء حالاً بعد حال حتى يصل إلى تمامه[4] .

وثاني هذه الصفات قوله سبحانه : {وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ} إنّ هذا التعبير القرآنيّ يفيض أدباً وعمقاً . لأنّ شفاء ما في الصدور تعبير جاء للكناية عن إزالة ما في الصدور من صفات الروح التي تتسم بالخُبث[5] . فعبّر القرآن بهذه الجملة الجميلة المعبّرة عن معنىً قدْ يُحرج المخاطب عند سماعه بصورة صريحة . والتعبير في الوقت نفسه يفيض رحمة وإكراماً ؛ لأنّه يتضمّن إزالة ما في صدورهم من صفات خبيثة . ومن الطبيعيّ فإنّ تلك الصفات الخبيثة تسبب شقاء الإنسان وتنغيص عيشه السعيد في كلا الدارين[6] .

وثالث هذه الصفات قوله تعالى : { وَهُدًى } . والهدى هي الدلالة على المقصود بلطف كما ذكر الراغب في مفرداته[7] . وهي دلالة نتيجتها معرفة طريق الحق[8] . وبطبيعة الأمر فإنّ هذه المعرفة تؤدي إلى سعادة الإنسان وفوزه في كلا الدارين .

ورابع هذه الصفات قوله عزّ شأنه : { وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ } . فإنّ وصف الله كتابه بأنّه رحمة للمؤمنين يعني أنّه يُغطي المؤمنين بالخيرات والبركات المتنوّعة التي ادخرها الله سبحانه فيه[9] . وكلّ هذا من رأفة الله ورحمته بالنّاس في هذا الخطاب .

---

(١) ينظر : معاني النحو : ٣ / ٢٦٩ .
(٢) ينظر : العين : ٢ / ٢٢٨ (وعظ) .
(٣) ينظر : الأمثل : ٥ / ٤٩٦ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٣٦ (ربّ) .
(٥) ينظر : الميزان : ١٠ / ٢١٢.
(٦) ينظر : المصدر نفسه .
(٧) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨٣٥ (هدى) .
(٨) ينظر : مجمع البيان : ٥ / ١١٠ .

إنّ هذه الصفات الجميلة الرائعة المفعمة بالرفق والعفو الإلهي تجعل التعبير ينساب في النفوس انسياباً من أوّله إلى آخرة ، وكأنّ الآية الكريمة نوع من البشرى الإلهية يُبشر بها سبحانه النّاس في تعبير هذا الخطاب .

شدّة الخطاب ولينه في الترهيب والترغيب :

أمر الله تعالى رسوله محمّد (صلى الله عليه وآله) باستعمال جانب الترهيب مِنْ خلال التشديد والتغليظ في الخطاب مع من ضلّوا وكذّبوا ، قال جلّ وعزّ : { قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ }[1] ، فقدْ جاءت (إنّ) المؤكدّة المشدّدة في قوله سبحانه : { ثُمَّ إِنَّكُمْ } وهي تمنح التعبير متانة وشدّة . واستعمل القرآن أسلوب الهجاء والتقريع . إذْ إنّه وصفهم بـــ : { ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ } وهذا يُشير إلى ما همْ فيه مِنْ شقاء وخسران في يوم البعث ، فإنّهم ضلّوا عَنْ جادّة الحقّ واستقرّ ذلك في نفوسهم باستمرار كذبهم وإصرار تمسكهم بالحنث[2] .

إنّ لفظة (الزقوم) في قوله تعالى : { لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ } توحي بالرُعب والخوف والفزع . إذْ انّ معنى (الزقوم) أطعمة كريهة في نار جهنّم ، ومنه : زقم فلان وتزقم ، أي ابتلع شيئاً كريها[3] . وقيل أنّها شجرة مرّة كريهة الطعم والرائحة يُكره أهل النّار على تناولها ، من الزقم ومعناه : اللقم الشديد والشرب المفرط[4] . وهذه اللفظة تحمل دلالة إيحائيّة تنبثق من موسيقى أصواتها وائتلاف مخارجها ، فترسم صورة ذلك الطعام الخبيث المستقذر ، وحجم العناء الذي يلاقيه أكله[5] . وهذا ناتج عن صوت (القاف) القويّ الذي يتسم بجهره وشدّته[6] . وانتهاء الكلمة بصوت (الميم)

---

(١) الواقعة : ٤٩ ــ ٥٦ .
(٢) ينظر : الميزان : ١٩ / ٦٢ .
(٣) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٨٠ (زقم) .
(٤) ينظر : مجمع البحرين : ٣ / ٣٦٦ (زقم) .
(٥) الإيحاء الصوتيّ .. في النص القرآني : د. زهير غازي زاهد (بحث في مجلة ينابيع) ، العدد ١٧ ، السنة الثالثة ، ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م : ١٤ .
(٦) ينظر : البناء الصوتيّ في السور المكيّة : إبراهيم صبر محمد (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة : ١١١ .

الشفوي[1] . الذي يُحدث صعوبة في النطق لانطباق الشفتين .

من الواضح أنّ طعام الضالين يزيدهم عطشاً كلّما أكلوا منه ، لذا يُوجّه لهم الخطاب : { فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۖ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ } . والحميم هو الماء الذي يتسم بالحرارة ، وهو العرق السائل على الأجساد الناتج عن حرارة وتعب شديدين[2] . وهو من الطبيعي أنْ يكون مقطّعاً للأحشاء والأمعاء ، فهذه صورة من صور العذاب الشديد التي لا تقف عند هذا الحدّ ، بلْ ((يعرض لنا تعبير الهيم ... صورة العطش الدائم واللوعة المستمرّة التي يُعانيها المجرمون يوم القيامة ، كما يعكس لنا صوراً من البيئة العربيّة وصورة الإبل المريضة بالهيام تشرب الماء فلا ترتوي ، وصورة الرمل المنهال الذي لا يُمسك الماء ولا يحفظه ، وهي صورة تكمل ملامح عذاب المجرمين في النّار))[3] ، إنّ هذه الصورة العذابيّة تحمل تحقيراً شديداً وتهكماً واضحاً للمخاطبين

ثم يقول تبارك وتعالى : { هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ } . ومعنى النزل الطعام والشراب المقدّم للضيف عند نزوله ، والغرض منه إكرامه ، وهذا المعنى الذي صُرّح به ممّا لهم منْ طعام وشراب هو نزل الضالين المكذّبين ، فإنّ في التعبير عمّا أعدّه الله تعالى لهم بالنُزل صنفاً منْ التهكم بهم[4] . ويلحظ في قوله تعالى : { هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ } وقوع الالتفات من الخطاب للضالين المكذبين إلى الغَيبة ، وهذا يتضمّن تحقيراً من شأن المخاطبين ، لأنّ أصل التعبير : (هذا نزلكم)[5] .

ومثلما أمر الله سبحانه رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله) بترهيب الضالين المكذّبين من خلال الخطاب القويّ الشديد ، أمره بترغيب العباد من خلال الخطاب اللين اللطيف ، قال تعالى : { قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ }[6] ، فأوّل ما ابتدأ به تعبير الآية حرف النداء (يا) فاستعمل القرآن هذا الحرف دون غيره من أحرف النداء الأخرى . وإنّ حرف النداء (يا) من أكثر أحرف النداء خفة في نطقه ، حتى كأنه ــ لما فيه من خفة

---

(١) ينظر : جماليات المفردة القرآنية : أحمد ياسوف : ١٢٨ .

(٢) ينظر : التطوّر الدلاليّ بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم : عودة خليل أبو عودة : ٤٣٧.

(٣) التعابير القرآنية : ابتسام مرهون الصفار : ٢٤٦.

(٤) ينظر : الميزان : ١٩ / ٦٢ .

(٥) ينظر : أساليب المعاني في القرآن : السيّد جعفر السيّد باقر الحسينيّ : ٤٠٧ .

(٦) الزمـــــر : ٥٣ .

الحركة ــ عبارة عن صوت واحد ، لأنّ اللسان ينطلق في أثناء مَدّة من غير أنْ يستأنف أيّ عمل ، أمّا الأحرف الأخرى ــ الهمزة وألِف وهيا وأي ــ فجميعها تبدأ بصوت من أصوات الحلق ، وهي أكثر الأصوات ثقلاً في النطق[1] . وهذا يمنح التعبير سلاسة وخفة .

ويُلحظ أنّ الله سبحانه أضاف لفظة : (العباد) إليه : { يَٰعِبَادِى } لكي يبعث المخاطبين على أنْ يتمسكوا بذيل الرحمة والمغفرة الإلهيّة[2] . ثمّ عبّر القرآن بقوله : { ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا } دون التعبير بـــ (الذين ظلموا ، أو الذين أذنبوا ، أو الذين أجرموا)[3] . والاسراف هو مجاوزة الحدّ في أيّ عمل يقوم به الإنسان[4] . واستعمال هذا التعبير لا يجرح نفوس المخاطبين وشعورهم بخلاف غيره من التعابير المذكورة ، وهذا ينمّ عن علو أدب القرآن وذوقه الرفيع في خطابه .

إنّ مجيء ((التعبير بـــ { عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ } يُبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلها عليه ، وهذا التعبير هو علامة أخرى من علامات محبّة الله لعباده ، وهو يُشبه خطاب الأب الحريص لولده ، عندما يقول له : لا تَظلم نفسك أكثر منْ هذا !))[5] .

ويدعو الربّ الكريم عباده الذين تعدّوا ما علّمهم به ، وخالفوا ما أمرهم ، لأجل دخولهم باب توبته وعدم يأسهم من رحمته[6] . قال سبحانه : { لَا تَقْنَطُوا } فهذا يفصح عن حبّه لعباده وإرادته الخير لهم . لأنّ معنى القنط اليأس ممّا هو خير[7] . ومجيء تعبير : { مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ } عقب تعبير : { لَا تَقْنَطُوا } يُؤكّد حبّه تعالى لعباده ، ورحمته ورأفته بهم .

إنّ تأكيد الكلام بـــ : (إنّ) في قوله جلّ وعزّ : { إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا } ومجيء لفظة (الذنوب) التي جُمعت بـــ (أل) يدلّ على شمول جميع الذنوب بلا استثناء ، إنّ هذا يجعل التعبير زاخراً برحمة الله سبحانه ، زيادة على هذا تأكيد الكلام بمؤكد ثـــان

---

(١) ينظر : خصائص التعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة : ٢ / ٨ .
(٢) ينظر : الميزان : ١٧ / ١٢١ .
(٣) ينظر : الأمثل : ١١ / ٥٤٩ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٠٧ (سرف) .
(٥) الأمثل : ١١ / ٥٣٩ ــ ٥٤٠ .
(٦) ينظر : نفحات قرآنيّة : ١٣٣ .
(٧) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٨٥ (قنط) .

وهو لفظة : (جميعاً) ليصبح التعبير في منتهى الأمل[1] . وقد حصل في هذا التعبير التفات من الخطاب إلى الغيبة[2] . ويلحظ في الالتفات أنه يعبّر عن المعنى نفسه بأسلوب جديد إبتعاداً عن تكرار الأسلوب مرات عديدة ، فينتج عن ذلك أنْ يُجدّد نشاط السمع لدى المتلقين فلا يجدون مَلاً في تلقيهم الخطاب[3] .وبهذا يكون هذا الخطاب خفيفاً على نفوس المخاطبين مؤنساً لهم لا يجدون فيه ثقلا أو ملالا .

لقد كان ختام الآية المباركة كبدايتها من حيث سعة الرحمة الإلهيّة ، فكما ابتدأت الآية بتعبير يفيض أملا وعطفاً ورفقاً : { يَـٰعِبَادِى } خُتِمت بتعبير يفيض مغفرة ورحمة ، وهو قوله سبحانه : { ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ } . فلفظة (غَفور) صيغة مبالغة على زنة (فعُول)[4] . وهي تُعطي دلالة المبالغة في مغفرة الله تعالى لعباده . ولفظة (رَحيم) صفة مشبهة على زنة (فعيل) تدلّ على الثبوت والبقاء[5] . وهي تعطي دلالة ثبوت رحمة الله وبقائها لعباده .

إنّ هاتين اللفظتين : (غفور ، رحيم) جاءتا متناسبتين مع السياق الخطابيّ للآية الكريمة ، فإنّ الخطابَ موجّه لـــ { ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ } وهاتان اللفظتان تحملان المغفرة والرحمة الإلهيّة لمنْ أسرفوا على أنفسهم ، لذا هما يُنزلان البشرى والطمأنينة والأمل في نفوس المخاطبين .

شدّة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين في سكرات الموت :

والخطاب الذي يكون عند سكرات الموت يختلف في أسلوبه شدّة ولينا ، فمن شدّة الخطاب ما يُوجّه للظالمين ، قال تعالى : { ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ }[6] ، إنّ الذين ظلموا أنفسهم . بسبب ما همْ عليه من الكفر[7] . كأنّ ليس لديهم خضوع كامل في ذلك الوقت ، وكأنهم لمْ يعلموا أنّ

---

(١) ينظر : الأمثل : ١١ / ٥٤٠.
(٢) ينظر : الميزان : ١٧ / ١٢١
(٣) اللباب في تفسير الكتاب : السيّد كمال الحيدريّ : ١ / ٣٢٠ .
(٤) ينظر : شذا العرف في فنّ الصرف : الحملاوي : ٧١ ، والتحليل اللغويّ في ضوء علم الدلالة : د. محمود عكاشة : ٨٦ .
(٥) ينظر : معاني الأبنية : ٩٢ .
(٦) النحل : ٢٨ ــ ٢٩ .
(٧) ينظر : تفسير شبّر : ٢٣٦ .

نكرانهم بغير معنى أمام عالم الغيب ، وبذلك بعد إلقائهم المسالمة يقولون للملائكة : { مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ }[1]. فيأتي الردّ عليهم : { بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ــ الذي من المحتمل أنْ يكون خطاب ملائكة الموت ــ وهو يحمل تحذيراً لأولئك الكافرين ، وكأنهم يردّون عليهم : لا تسعوا في إنكاركم فهو لا ينفعكم لأنّ الله سبحانه الذي يسع كلّ شيء سيزيح الغطاء عمّا كنتم تعملون[2] . وهذا تقريع وتكبيت لهم وتشديد عليهم ؛ لأنّهم لمْ يُبقوا لهم أيّ أمل ومنفذ بعد أنْ أخبروهم بعلم الله وإحاطته بأعمالهم .

ثمّ يوجّه الأمر لهم : { فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ } . ومعنى التعبير : ادخلوا كلّ صنف من الباب المخصّص له ، وذكر أنّ أبواب جهنّم هي أنواع العذاب فيها ودخول أبواب جهنّم جاء تعبيراً عمّا يُلاقيه المخاطبون من اللبس والقسوة[3] .

إنّ لفظة (جهنّم) تثير ــ بحدّ ذاتها ــ الرُعب والفزع والهلع للمخاطبين ، لأنها ((الصفة الغالبة للنّار))[4] ، وهذه اللفظة تتسم بتركيبتها الصوتيّة الشديدة ، إذْ تبدأ بـــ: (الجيم) . وهو صوت شديد مجهور[5] . وتنتهي بـــ : (الميم) . وهو صوت متوسط بين الشدّة والرخاوة[6] . وأنفيّ المخرج تنطبق الشفتان فيه بصورة تامّة فينتج عن ذلك صعوبة في نطقه[7] . هذا ومن المهمّ أنْ نشير أنّ المقصود منْ جهنّم هو جهنّم عالم البرزخ ، لأنّ هذا ينسجم مع حالة سكرات الموت[8] .

يُشير قوله تعالى : { خَٰلِدِينَ فِيهَا } إلى أنّ عذاب الظالمين وخلودهم سيكون في داخل جهنّم لا بأطرافها وجوانبها ، وتُستمدّ هذه الدلالة من التعبير بحرف الجرّ: (في) التي تُفيد معنى الضمنيّة المكانية ، ولا يخفى ما في هذا المعنى من الترهيب .

ويأتي التعبير القرآنيّ ذامّاً لمثوى المتكبرين من خلال استعمال (بئس) . التي هي من ألفاظ الذم[9] . وقد أكدّ التعبير هذا الذمّ بحرف اللام الذي أفاد التوكيد في سياق قوله

---

(١) ينظر : نفحات القرآن : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٥ / ٣٣٦ .
(٢) ينظر : المصدر نفسه : ٥ / ٥٣٧ .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : ٣ /٢٦٠ .
(٤) التطوّر الدلاليّ بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم : ٤١٨ .
(٥) ينظر : علم اللغة العام ــ الأصوات : ١٢٦ .
(٦) ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربية : ١٨٩ .
(٧) ينظر : علم اللغة العام ــ الأصوات : ١٣٠ .
(٨) ينظر : نفحات القرآن : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٥ / ٣٣٧.
(٩) ينظر : التراكيب اللغوية : أ. د. هادي نهر : ٢٣٤ .

تعالى : { فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ } .

إنّ ورود لفظ (المتكبّرين) في نهاية الخطاب له إرتباط ــ على ما يبدو لنا ــ مع بداية الخطاب ، فإنّ التكبّر سمة بارزة لأولئك الظالمين في الحياة الدنيا ، ولكن عند حلول سكرات الموت فإنّ حالهم يتبدّل كما أوضح تعبير الخطاب إلى الخضوع والذلة والمسكنة ، لذا هم يُلقون المسالمة : { فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ } فيأتي التعبير القرآني بلفظة (المتكبّرين) وكأنّه يُذكرهم بما كانوا عليه من التكبّر والعناد في الوقت الذي أصبحت فيه حالتهم في أسوء ما يكون ، وهذا في غاية التوبيخ والتهكم .

والآن نقف عند لين الخطاب بعد انْ وقفنا عند شدّته ، قال جلّ وعزّ : { ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[1] ، ففي واقع الحال من غير الممكن أنْ تُكافأ طهارة المؤمنين وتقواهم إلا بهذا الخطاب وأشباهه ، وهو أنْ تقوم ملائكة الله باستقبالهم بسلام وترحيب وتطلب منهم دخول الجنّة بدعوة تفيض لطفاً ومحبة واحتراما[2] . فإنّ هذا السلام الذي ألقته الملائكة يؤمّن المؤمنين من الناحية القوليّة[3] . وفي الأخص أنّ لفظ السلام جاء (نكرة) . والنكرة تفيد معنى التعميم والشمول[4] . إنّ هذا يُوحي بدلالة ما يحمله هذا السلام من معاني الحبّ والإكرام والأدب وما إلى ذلك فهو سلام شامل عام غير محدود . زيادة على هذا فإنّ سلام الملائكة جاء بـــ : (الرفع) بتعبير الجملة الاسميّة . وإنّ مجيء السلام مرفوعاً أكثر تماماً وكمالا ، فإنّ الجملة الاسميّة تدلّ على معنى الثبوت ، بخلاف الجملة الفعليّة التي تدلّ على التغيّر والتجدّد ، وإنّ تعبير الاسم أكثر ثباتاً وقوّة من تعبير الفعل[5] .

ويأتي الأمر من الملائكة للمؤمنين بتعبير : { ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ } إنّ هذا الأمر يحمل إكراما وتشريفاً للمخاطبين ، لأنّ هذا ما يحدّده السياق الذي يتضمّن دخولهم الجنة التي طالما سعوا منْ أجلها واشتاقوا إليها .

---

(١) النحـــل : ٣٢ .
(٢) ينظر : نفحات القرآن : ٥ / ٣٣٧ .
(٣) ينظر : الميزان : ١٢ / ٢٦٧ .
(٤) ينظر : النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم : محمّد صلاح الدين مصطفى بكر: ٣٩٩ .
(٥) ينظر : خطرات في اللغة القرآنية : ١٦٨ .

ومثلما أسهمت لفظة (جهنّم) في إضفاء الشدّة على الخطاب الموجّه للظالمين ، فإنّ لفظة (الجنّة) تسهم في إضفاء الليونة والرقة على تعبير هذا الخطاب ، لأنّ ((الجنّة هو الاسم العلم ، أو هو الاسم الشخصيّ ــ إنْ جاز التعبير ــ للمكان الذي وعد الله عزّ وجلّ عباده المتقين . والقرآن الكريم ... استخدم لفظ الجنّة على هذا الاعتبار))[1] ، لذا إنّ التعبير يُشعر المخاطبين بالفوز والثواب الذي تحصلوا عليه ، وهذا يَغمر نفوسهم بالسكينة والطمأنينة والأمان .

ويُختتَم تعبير الآية المباركة بأسلوب المدح والتهنئة المقدّم للمؤمنين جزاء على ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا وذلك في قوله تعالى : { بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } .

في طرح المَثَــل :

عندما يعبّر القرآن عن تمثيل الكلمة الطيّبة بالشجرة الطيّبة ــ التي فُسرت على أنّها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين علي (عليه السلام) وفاطمة وبنوها (عليها وعليهم السلام)[2] ــ فإنّه يُعبّر في منتهى اللطف واللين ، قال تبارك وتعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }[3] ، فنجد أنّ القرآن قدْ أطال وأطنب في الكلام عن الشجرة الطيّبة ــ على العكس تماماً ممّا سنرى في الكلام عن الشجرة الخبيثة ــ وهذه الإطالة في التعبير تبعث الارتياح والسكينة والطمأنينة في النفوس ، لأنّ سياق الكلام في منتهى الحسن والروعة والجمال ، فهو في صدد وصف شجرة طيّبة مباركة .

الملحوظ أنّ الألفاظ تكتسب دلالاتها من أجراس ألفاظها[4] . وفي قوله تعالى : { مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ } نجد أنّ تكرير التنوين ــ تنوين الفتح والكسر ــ قدْ أضاف

---

(١) التطوّر الدلاليّ بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم : ٤٠٠ .
(٢) ينظر : روح المعاني : الآلوسي : ١٣ / ٢١٥.
(٣) إبراهيم : ٢٤ ــ ٢٥ .
(٤) ينظر : الأسلوبيّة الصوتيّة بين النظريّة والتطبيق : د. ماهر مهدي هلال (بحث في مجلة آفاق عربيّة) ، العدد (١٢) ، السنة السابعة عشر ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م : ٦٩.

نوعاً من الترخيم والترنيم ، الأمر الذي يجعل التعبير رقيقاً على الأسماع مُحرّكاً إيّاها مؤنساً لها .

إنّ النغم الموسيقي ــ الناتج عن تكرير التنوين بنوعيه الفتح والكسر في هذا التعبير ــ يتسم بخفته وانسيابيته ، لأننا نلحظ تناسباً صوتيّاً كبيراً بين لفظ : (مثلاً) المُنوّن ، وبين الألفاظ المتعاقبة المنوّنة ، فلم يحدث هناك أيّ انفصال صوتيّ بين هذا اللفظ وبين الألفاظ المنوّنة التي تعقبه ــ بخلاف ما سنرى في الحديث عن الشجرة الخبيثة ــ وكلّ هذا تليين وتلطيف .

وصف القرآن الشجرة الطيّبة بالرسوخ والثبات : { أَصْلُهَا ثَابِتٌ }[1] . ومجيء التعبير بالجملة الأسميّة يؤكد هذا الثبات . لأنّ الاسم يدلّ على الثبوت والبقاء[2] . وتعبير الاسم أكثر ثبوتاً وقوّة من تعبير الفعل[3] . فأصل هذه الشجرة في بقاء دائم فلا يحدث له الفناء[4] . إنّ هذا الوصف القرآني ممّا يُطمئن النفس ، لأنّ ((النفس تطمئنّ بما يبقى ، كما تهلع ممّا يفنى ، وهنا ترتبط الوظيفة النفسيّة بالوظيفة الفنيّة))[5] ، ثمّ وصف القرآن هذه الشجرة بوصف آخر فقال : { وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ } وإنّ هذا الوصف يتداخل ويتراسل مع النفس فيغمرها بالأمان والاطمئنان ويدعوها إلى التمسك بهذه الشجرة المباركة . فمن جهة أنّ الفروع التي في السماء تؤكد رسوخ أصولها في الأرض وشموخ ارتفاعها[6] . ومن جهة أخرى ما يُضيفه التعبير من معان جميلة رائعة . فاشتمالها على الأغصان المرتفعة يُفضي بإفادتها من نقاء الهواء المرتفع ، كما يفضي بإفادتها من نور الشمس بأفضل صورة ، كما يعني ذلك أنّها آمنة من التلوث الموجود في هواء الطبقات الدنيا من أجواء الأرض[7] .

---

(١) ينظر : الأمثال في القرآن الكريم : د. محمّد جابر الفيّاض : ٤٣٤ ــ ٤٣٥ .
(٢) ينظر : معاني الأبنية : ٤٦ .
(٣) ينظر : خطرات في اللغة القرآنيّة : ١٦٨ .
(٤) ينظر : الصورة الفنيّة في المثل القرآنيّ : محمّد حسين عليّ الصغير : ٣٤٣ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) ينظر : المصدر نفسه : ٣٤٤ .
(٧) ينظر : أمثال القرآن : آية الله مكارم الشيرازي : ٢٥٠ ، والأمثال في القرآن الكريم : العلامة الشيخ جعفر السبحاني : ١٦٤ ــ ١٦٥ .

وعندما يُعبّر القرآن عن تمثيل الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة فإنّه يُعبّر في منتهى الشدّة والقوّة ، قال جلّ وعزّ : { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ }[1] ، فقد مرّ القرآن في تعبيره عن هذه الشجرة بصورة خاطفة مرعبة مفزعة ، فلم يطل في الكلام فيها وفي أوصافها ، إنّما وصفها بوصف يكفي لمنْ سمعه أنْ يُدرك أنّ تلك الشجرة لا حدود لخبثها ووضاعتها .

عند النظر في قوله تعالى : { وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ } من الجانب الصوتيّ نجد أنّ بين لفظتي : (مثلُ) و (كلمةٍ) انتقالاً صوتيّاً أشبه ما يكون بالصعود ثمّ النزول ، إذ تنتهي اللفظة الأولى بعلامة الرفع الضمّة وتنتهي اللفظة الأخرى بتنوين الكسر ، وكأنّ هذا تقطيع موسيقيّ بين اللفظتين ، الأمر الذي يُضفي نوعاً من الخشونة والشدّة على التعبير ، ثم إنّ مجيء التنوين على وتيرة واحدة ــ تنوين الكسر ــ في الألفاظ : (كلمةٍ ، وخبيثةٍ ، وكشجرةٍ ، وخبيثةٍ) يُعطي نغماً متكرّراً يجعل التعبير قويّاً متيناً إلى حدّ ما .

إنّ التعبير القرآنيّ عبّرَ عن تلك الشجرة تعبيراً مروّعاً ، وذلك من خلال أوصافه لتلك الشجرة وتعبيره الفنيّ عنها ، إذ انّها خبيثة على اختلاف هيئاتها شكلاً وثمراً وأرضاً[2] . ومجيء لفظة (خبيثة) صفة مشبهة على زنة (فَعِيل) التي تحمل دلالة الثبات والبقاء . يدلّ على أنّ صفة الخبث فيها ثابتة غير متغيّرة ، ثم انها مستأصلة بتمامها ومقطوعة من منبتها ، فليس لها أصول ثابتة ولا فروع متشابكة فهي قد : (اجتثت من الأرض)[3] . وعند النظر في قوله سبحانه : { ٱجْتُثَّتْ } يلزمنا الوقوف عند دقة الاختيار ، إذ اختار القرآن فعل الاجتثاث دون غيره من الأفعال كالانفصال مثلاً ، إنّ فعل الاجتثاث أقوى في تأدية المعنى من غيره من الأفعال لأنّ ((حقيقة الاجتثاث هي اقتلاع الشيء من أصله ، أي اقتطعت واستأصلت واقتلعت جذورها مــن

---

(١) إبراهيـــم : ٢٦ .
(٢) ينظر : الصورة الفنية في المثل القرآنيّ : ٣٤٤.
(٣) ينظر : المصدر نفسه .

الأرض))[1] ، وهذا الفعل ــ اجتُثّت ــ يدلّ على قطعيته ، أي يكون انتهاء هذا الفعل بمجرّد أنْ يتحقق[2] . ثم لما يتسم به لفظ : (اجتثت) من تركيب صوتي . فكلّ من الهمزة والجيم صوت شديد[3] . واحتواء اللفظ على هذين الصوتين يكسبه خشونة وشدّة وبذا فاللفظ يتناسب مع موضوع الخطاب .

(١) الأمثال في القرآن الكريم : العلامة الشيخ جعفر السبحانيّ : ١٦٨.
(٢) ينظر : الإشارة الجمالية في المثل القرآنيّ : د. عشتار داود محمّد : ٨٥ .
(٣) ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربيّة : ١٨٩ .

المبحث الثاني

في الخطاب الأخرويّ

شدّة الخطاب للكافرين ولينه للمؤمنين :

يختلف أسلوب الخطاب الموجّه لكلّ من الكافرين والمؤمنين في الحياة الآخرة ، فمن الخطاب الموجّه للكافرين قوله تعالى : { قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۝ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }[1] فهذا خطاب شديد غليظ ، إذْ ابتدأ بالتعبير بالأداة (لا) الناهية الجازمة وهي تمنح الكلام شدّة ومتانة ، زيادة على هذا فإنّ هذا النهي يحمل تيئيساً لأولئك المخاطبين المختصمين ، فإن اختصامهم من غير جدوى وليس له أيّ فائدة أمام ربّ العزّة والجلالة يوم القيامة . ذلك أنّ وعيد الله جلّ وعزّ غير متبدّل ولا متغيّر والخلفُ فيه ليس بجائز ، لأنّ جميع ذلك يعني التبدّل ، وقدْ أبى الله سبحانه أنْ يُبدّل في وعيده[2] .

نجد في تعبير الآيتين الكريمتين تكرير التأكيد ، فنجد في قوله سبحانه : { بِالْوَعِيدِ } مجيء الباء الزائدة التي أفادت تأكيد المعنى في هذا السياق ، وفي قوله جلّ وعزّ : { بِظَلَّامٍ } جاءت الباء أيضاً للتأكيد ، تأكيد نفي الظلم عن الله سبحانه ، وزيادة على ما يضفي به التأكيد من نبرة شديدة قويّة على التعبير ، فإنّ اقتران التأكيد بوعيد الله تعالى الذي كُرّر مرارا في آياته يحمل في معناه تضييقاً شديداً وتكبيتاً على نفوس المخاطبين

واستعمل القرآن لفظ ((« ظلام » وهو صيغة مبالغة معناه كثير الظلم ، مع أنّ الله لا يصدر منه أقلّ ظلم ، ولعلّ هذا التعبير هو إيذان بأنّ مقام عدل الله وعلمه في درجة لو صدر منه أصغر ظلم لكان يُعدّ كبيراً جداً ولكان مصداقاً للظلام ، فعلى هذا فإنّ الله بعيد عن أنواع الظلم))[3] ، إنّ هذا المعنى يحمل من التيئيس والتضييق للمخاطبين ما لا يخفى ، إذْ لمْ يبق لهم أيّ منفذ وليس أمامهم إلا العذاب بعد أنْ أخبروا بعدل الله تعالى .

عند النظر في الآيتين الكريمتين ــ من الجانب الصوتيّ ــ نلحظ ورود صوت (الدال) في نهاية الفاصلتين : (الوعيدْ ، وللعبيدْ) هذا وقدْ تكرّر صوت (الدال) في خمسة مواضع زيادة على ما ذكرنا وهي : (لديّ ، وقدْ ، وقدّمت ، ويُبدّل ، ولدىّ) فيكون وروده في سبعة مواضع مُجملاً في الآيتين . والدال صوت شديد[4] . ومجهور[5]

---

(١) ق : ٢٨ ــ ٢٩ .
(٢) ينظر : متشابه القرآن : القاضي عبد الجبّار : ٦٢٦ .
(٣) الأمثل : ١٣ /١٧٧ .
(٤) ينظر : مدخل إلى فقه اللغة العربيّة : ١٨٩ .
(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٨٨ ــ ١٨٩ .

وهو من أصوات القلقلة[1] . ونظراً لهذا فإنّ التعبير تكسوه نغمة تكسبه متانة وشدّة وغلظة .

ومن الخطاب الموجّه للمؤمنين قوله عزّ شأنه : { وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }[2] ، فهذا خطاب ليّن هادىء لطيف ، إذ إنّ استعمال اسم الإشارة (هذا) ــ الذي يُشار به إلى القريب[3] ــ يُشير إلى قرب نعيم الجنّة من المتقين . كما أنّ صيغة الفعل المضارع : (تُوعَدون) قدْ أحضرت الصورة السابقة ــ صورة قرب الجنّة من المتقين ــ وكأنّ الجنّة هي التي أتت إليهم بنفسها[4] . ومجيء الفعل المضارع بصيغة البناء للمجهول ــ الذي يحمل دلالة التعظيم في الوصف ــ يُوحي بعظمة النعيم والثواب الذي يُوعد به هؤلاء المتقون ، فهو نعيم عظيم وثواب لا يُوصف ، وكلّ هذا يجعل الخطاب في غاية التكريم ومنتهاه

وإلى جانب هذا التكريم يأتي التعبير القرآنيّ مادحاً المتقين ومهنئاً إيّاهم على أعمالهم الحسنة ، وهذا ما توحي به لفظتي : (أوّاب ، وحفيظ) . فالأوّاب مأخوذ من الأوب ويعني الرجوع ، ويُراد بذلك الرجوع الكثير إلى الله جلّ وعزّ بالطاعة والحفيظ يعني الدائم على حفاظه على ما عهد إليه الله تبارك وتعالى[5] .

ثمّ انّ قوله تعالى : { مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ } يتضمّن لطيفة معنويّة ، وذلك انّ اقتران لفظ الخشية مع صفة الرحمن يُشير إلى مدح المتقين ، إذ انّهم لمْ يمتنعوا بسبب رحمة الله من أنْ يخافوا بسبب عظمة الله سبحانه .

ويفاجئنا في قوله تعالى : { مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ } أسلوب من أساليب القرآن التعبيريّة الفنيّة الجميلة ألا وهو الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، إنّ هذا

---

(١) ينظر : الصوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم : ١٢٤.
(٢) ق : ٣١ ــ ٣٥ .
(٣) ينظر : دراسات في قواعد اللغة العربيّة : ١ / ٣٦ .
(٤) ينظر : النظم القرآنيّ في سورة ق : عدنان خالد المرابحي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة البصرة : ٤٦.
(٥) ينظر : الميــزان : ١٧ / ٣٢٨ .

ـ على ما يبدو لنا ـ يُشكل تنويعاً وتلويناً في الأسلوب ، الأمر الذي يُنتج تشويقاً وارتياحاً وتلذذاً يشعر به المخاطب عند تلقيه الخطاب دون الشعور بالسأم والملل .

ويستمرّ التكريم المليء بالأدب الصادر من الملائكة إلى المتقين ، قال تعالى : { ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ } فإنّ أسلوب الأمر هذا يتضمّن معنى الاكرام للمخاطبين ، ويتضح هذا من السياق الذي يتضمّن دخولهم الجنّة بسلام . فإنّ هذا السلام يعني سلامتهم من أصناف الأذى والإساءة والتعذيب والعقاب كافة ، وهو سلام مكتمل في ثوب الصحة والعافية[١] . وقيل إنّ معنى هذا السلام : أنكم تتلقون السلام من الله تعالى ومن الملائكة[٢] .

إنّ هذا التعبير : { ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ } يتضمّن في طيّاته بشارتين للمتقين ، فالبشارة الأولى بشارة دخولهم في الجنّة ، والبشارة الثانية بشارة خلودهم فيها[٣] . وزيادة على هاتين البشارتين يضيف تعبير القرآن بشارتين ربانيتين أخريين في قوله جلّ وعزّ : { لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }[٤] . ومن غير الممكن أنْ يكون هناك تصويراً أكثر بلاغة من هذا التعبير وقعاً في النفس[٥] . إذْ ((يدلّ هذا التعبير على توفير كلّ ما تتسع له جملة : { لَهُم مَّا يَشَآءُونَ } وكلّ ما تشتمل عليه ارادتهم [بالإضافة] إلى توفير جميع النعم والعطايا التي لمْ تخطرْ على بال أيّ إنسان ، وبشملهم بلطفه الذي يستعصي على البيان وصفه))[٦] .

وفي التعبير المبارك لطيفة من لطائف الكلام البليغ وهي مجيء لفظة (مزيد) نكرة ، وقدْ أدّت النكرة هنا معنى الإبهام الذي يوحي بمعنى التعظيم والتكثير ممّا لا توحي به المعرفة[٧] .

---

(١) ينظر : الأمثل : ١٣ / ١٨١ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٤ / ٢٩٧ .
(٣) ينظر : الأمثل : ١٣ / ١٨١ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه .
(٥) ينظر : المصدر نفسه .
(٦) المعاد في القرآن الكريم : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٥٢٥ .
(٧) ينظر : النظم القرآنيّ في سورة ق : ٨١ .

شدّة الخطاب بين أصحاب النّار ولينه بين أصحاب الجنّة :

يتّسم الخطاب بين الأتباع الضالين وقادتهم المضلين بالخصام الشديد والجدال العنيف في الحياة الآخرة ، ويعرض لنا القرآن ضرباً من المساءلة التي تجري بينهما في قوله تعالى : { وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ }[1] ، فقدْ تصدّرت أسئلة الأتباع بـــ : (إنّ) المؤكدة المشدّدة ، وبطبيعة الحال فإنّها تمنح التعبير متانة وشدّة . إنّ هذه الأسئلة التي يوجهها الأتباع تعبير عن الخصومة ، وهي أسئلة مغزاها التكبيت ، ولمْ تكن الأسئلة استفهاميّة بلْ هي أسئلة لوم وتوبيخ[2] . فإنّ أولئك الأتباع بقولهم : { إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ } يُلقون بالمسؤوليّة على رؤسائهم قائلين لهمْ بأنّه لولا أنكم أغررتمونا وخدعتمونا لكنا ممّن آمن بالله[3] .

وفي مقابل هذا اللوم والتوبيخ فإنّ المتبوعين لا يلزمون السكوت إنّما يجيبونهم بقولهم : { بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } وهنا يُجيبونهم ((أوّلاً بمنع إضلالهم بأنّهم كانوا ضالين في أنفسهم ، وثانياً بأنّهم ما أجبروهم على الكفر إذْ لمْ يكن لهم عليهم تسلط وإنّما جنحوا إليه لأنّهم كانوا قوماً مختارين للطغيان))[4] ، إنّ هذا التعبير يحمل كمّاً هائلا من الألم والتكبيت والتوبيخ للأتباع ، لأنّ الرؤساء المتبوعين قدْ تبرأو تبرُءاً كلّياً من أتباعهم وألقوا الذنب عليهم ووصوفهم بالقوم الضالين .

ويستمرّ الخطاب من أئمة الكفر والضلال لأتباعهم بقولهم : { فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ } . ومن خلال معنى لفظة (أغوى) الدقيق التي اشتُقت من (غي) يتضح الموضوع ، لأنّ معنى لفظة (غي) الجهل الذي ينشأ عن فساد المعتقدات[5] . فإنّ هذا التعبير زيادة

---

(١) الصافات : ٢٧ ــ ٣٢ .
(٢) ينظر : تهذيب التفسير الكبير : الرازي : ٢٣ / ٤٧ .
(٣) ينظر : التفسير الكاشف : ٢٣ / ٣٣٦ .
(٤) حقيقة عالم الموت : العلامة المجلسي : ٣٠٨ .
(٥) ينظر : الأمثل : ١١ / ٢٤٥ .

على ما فيه من التوبيخ فإنّه يحمل هجاءً مرّاً للأتباع ، لأنّ قادتهم المتبوعين أوضحوا بأنّه مع أنّهم جاءوا بعقائد فاسدة إلا أنّهم تمكنوا من إغواء أتباعهم الضالين وإفسادهم .

لقدْ ساعد الجانب الصوتيّ في إبراز جانب الشدّة والقوّة في هذا النص الخطابي ، فورود صوت الهمزة في ستة مواضع ، والكاف في ثمانية ، والقاف في أربعة ، والطاء في موضعين يُوضّح ما نذهب إليه . لأنّ جميع هذه الأصوات تحمل صفة الشدّة[1] . زيادة على هذا نجد أنّ صوت الميم تكرّر في عشر مرّات . وهو صوت شفويّ المخرج تنطبق الشفتان في نطقه[2] . فينتج عن ذلك صعوبة في النطق .

وفي مقابل ما رأينا من شدّة الخطاب وعنف الجدال بين الأتباع الضالين ومتبوعيهم ، نجد ذلك السَمَر الهادىء وتلك الليونة واللطافة في خطاب المؤمنين بعضهم ببعض ، قال عزّ شأنه : { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ }[3] ، فالذي نشهده في هذه الآيات نوعاً من الأنس في المخاطبة والتذاكر الجميل لأجل السرور والفرح ، إذْ يُحَدّث رجل من أهل الجنّة إخوانه عن قرين كان له في الدنيا ، وكيف كان ذلك القرين يلومه ويوبّخه على تصديقه : { يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ....} وكأنّ هذه المخاطبة ــ بين الرجل من أهل الجنّة ورفقائه ــ صورة من صور المقارنة بين الماضي الذي كان يتلقى فيه اللوم والتوبيخ وبين الحاضر الجميل بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

---

(١) ينظر : الصوت اللغويّ ودلالاته في القرآن الكريم : ١٢٣.
(٢) ينظر : المصدر نفسه : ١٢١.
(٣) الصافات : ٥٠ ــ ٦١ .

وبعد هذا فإنّ الرجل في الجنّة يتقدم بالقول طالباً من جلسائه أنْ يطلعوا إلى النّار ليشاهدوا ذلك القرين والخطاب معه : { قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ } وكلّ هذا من أجل الوصول إلى السرور الكامل[1] .

ومن خطاب هذا الرجل للقرين قوله : { وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ } إنّ هذا التعبير زيادة على ما فيه من توبيخ لذلك القرين ، فإنّ فيه من اللطافة والليونة لهذا الرجل وجلسائه ما لا يخفى . لأنّ أصل النعمة هي الحالة الحسنة[2] . ومعناها في هذا التعبير : نعمة الله بعصمته وتلطفه عليّ وهدايته لي للإيمان[3] . وكلمة الربّ مشتقة من التربية وتعني تنشئة الشيء حالا بعد حال إلى تمامه[4] . وهذا المعنى يوحي بكامل الرعاية والاهتمام ، وعلى ما يبدو لنا فإنّ استعمال هذه الكلمة مع ياء النسب (ربي) يوحي بكامل الأمان والاستقرار والاطمئنان .

ويستمرّ الخطاب القرآنيّ اللطيف بقوله تعالى : { أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ } فقد قيل ((إنّ هذا من قول أهل الجنة بعضهم لبعض على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنّة ، ولهذا عقبّه بقوله : { إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ } معناه : فما نحن بميتين في هذه الجنّة إلا موتتنا التي كانت في الدنيا ، وما نحن بمعذّبين كما وعدنا الله تعالى ، ويريدون به التحقيق لا الشك ، وإنّما قالوا هذا القول لأنّ لهم في ذلك سروراً مجدّداً ، وفرحاً مضاعفاً ، وإنْ كانوا قدْ عرفوا أنّهم سيخلدون في الجنّة))[5] .

رأينا فيما سبق ــ في خطاب الأتباع الضالين ومتبوعيهم ــ أنّ الجانب الصوتيّ أسهم في إضفاء الشدّة على الخطاب ، وقدْ أسهم في هذا الخطاب في إضفاء الليونة والرقة ، وإنّما حصل ذلك لكثرة ورود أصوات المدّ واللين التي اسهمت في جعل عبارات النصّ طويلة مناسبة هادئة ، فعلى سبيل التمثيل نجد في قوله تعالى : { إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ } نغماً طويلاً هادئاً ونبرة ممتدّة مسترسلة نتيجة أصوات المدّ واللين ، وعلى هذه الوتيرة تسيرُ باقي عبارات الخطاب الكريم .

---

(١) ينظر : تهذيب التفسير الكبير : ٢٣ / ٥٠ ــ ٥١ .
(٢) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٨١٤ (نعم).
(٣) ينظر : مجمع البيان : ٨ / ١٦٥ .
(٤) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٣٣٦ (ربّ) .
(٥) مجمع البيان : ٨ / ١٦٥

شدّة الخطاب من أصحاب الجنّة لأصحاب النّار ولينه بعكسه:

يشتدّ أسلوب الخطاب الموجّه من أصحاب الجنّة إلى أصحاب النّار ، وتعرض لنا سورة الأعراف صورة لذلك في قوله تعالى : { وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ..... }[1] ، فإنّ أصحاب الجنّة يعلمون يقينا بأنّ أصحاب النّار قدْ وجدوا ما وعدهم به الله تعالى من صدق وعيده وتهديده لهم ، ولكنّ توجيه هذا السؤال منْ أصحاب الجنّة إلى أصحاب النّار ــ زيادة على ما فيه منْ شكر لله على إنعامه عليهم ــ فإنّه تقريع لأصحاب النّار على ما كانوا عليه من كفر وعناد ، وهو كذلك تذكير لهم على ما كان يصدر منهم من استهزاء واستخفاف بدين الله الحق وبأهل هذا الدين[2] . فــ ((هذه هي واحدة من عقوبات العصاة والظالمين الذين عندما كانوا يتمتعون بلذائذ الدنيا ، حيث كانوا يؤذون المؤمنين بالعتابات المرّة ، والملامات المزعجة ، فلا بُدّ ــ في الآخرة ــ أن ينالوا عقابا من جنس عملهم كنتيجة طبيعيّة لفعلهم))[3] .

إنّ هذا التعبير القرآنيّ يضيف لأصحاب النّار عقاباً نفسيّاً زيادة على ما هم فيه من العقاب الجسديّ ، ففي الوقت الذي يُخبرهم فيه أصحاب الجنّة بأنهم قدْ وجدوا ما وعدهم به الله من النعيم والثواب وغير ذلك ، فإنّهم يوجهون لهم هذا السؤال التقريعيّ في الوقت الذي يكونون فيه ــ أصحاب النار ــ في أشدّ ما يكونون فيه من العقاب والعذاب ، فهذا يحّملهم عقاباً نفسيّاً على عقابهم وهمّاً شديداً على همّهم .

ويُلحظ في تعبير الخطاب الكريم حذف المفعول الثانيّ للفعل (وَعَد) وقدْ قيل أنّ حصول ذلك من أجل اسقاط أصحاب النّار عن رتبة التشريف بالخطاب بالوعد[4] . وهذا في غاية الإهانة والتوبيخ لأصحاب النّار .

ويلين الخطاب من أصحاب النّار الذين لا يملكون إلا أنْ يتذللوا ويخضعوا لأصحاب الجنّة كما تقول الآية : { وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ }[5] ، فنجد في هذا القول القرآنيّ إستغاثة أصحاب النّار بأصحاب الجنّة ، فقدْ عبرّ أصحاب النّار بالفعل : (أفيضوا) . ومعنى الفيض : السيل والانصباب ، يقال فاض الماء إذا سال مُنصبا ، وأفاض إناءه بمعنى ملأه حتى أفاضه[6]. ويقال : ماء

---

(١) الأعراف : ٤٤ .
(٢) ينظر : التفسير الكاشف : ٨ / ٣٣٠ .
(٣) الأمثل : ٤ / ٣٧٥ ــ ٣٧٦ .
(٤) ينظر : فتح القدير : ٢ / ٢٦٤ .
(٥) الأعراف : ٥٠ .
(٦) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٦٤٨ (فيض) .

يفيض أي أنّه يتسم بالكثرة ، حوض فائض بمعنى أنّه ممتلىء يفيض من جوانبه[1] . فإنّ استعمال هذا الفعل يوحي بتصاغر أصحاب النّار وتذللهم لأصحاب الجنّة ، ذلك أنّهم أصبحوا يتوسلون ويتوددون لأصحاب الجنّة طالبين منهم الفائض عن الحاجة لديهم الزائد الفاضل عندهم ، من الماء أو ممّا رزقهم الله ، إنّ هذا المعنى يبيّن أنّهم بالغوا في إظهار الخضوع والمسكنة في خطابهم مع أصحاب الجنّة .

نجد في تعبير هذا الخطاب استعمال حرف الجرّ (على) في قوله تعالى : { أَفِيضُوا عَلَيْنَا } والحرف (على) يفيد الاستعلاء في أصل معانيه ، وهذا يدلّ على أنّ أصحاب النّار صرّحوا بعلوّ مكانة أصحاب الجنّة في مقابل دُنوّ مكانتهم ، لأنّهم قالوا لهمْ : { أَفِيضُوا عَلَيْنَا } ولمْ يقولوا لهمْ : (أفيضوا لنا) ــ على سبيل التمثيل ــ فدلوا بقولهم هذا على أنّ أصحاب الجنّة أعلى منهم مكانة ، لذا طلبوا منهم الإفاضة عليهم ، ولمْ يطلبوا منهم الإفاضة لهمْ ، وبهذا فقدْ أظهروا تصاغرا وخضوعاً لهم ، وكلّ هذا تليين في الخطاب .

شدّة خطاب أصحاب الأعراف لأصحاب النّار ولينه لأصحاب الجنّة:

ومنَ المواقف الأخرويّة التي يتباين فيها الخطاب في شدّته ولينه ، ذلك الموقف الذي يخاطب فيه أصحاب الأعراف كلّ منْ أصحاب النّار وأصحاب الجنّة ، فمنْ خطابهم لأصحاب النّار قوله تعالى : { وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ }[2] ، إنّ هذا النصّ القرآنيّ تتضح فيه ملامح الشدّة والغلظة ، إذ ابتدأ أصحاب الأعراف بتعبير قولهم : { مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } . وهذا التعبير يتضمّن استفهاماً أفاد معنى تقريع المخاطبين وتوبيخهم[3] . فإنّ أصحاب الأعراف يوجهون النداء لفريق من أصحاب جهنّم ــ الذين

---

(١) ينظر : لسان العرب : ٥ / ٣٥٠٠ (فيض) .
(٢) الأعـــــراف : ٤٨ ــ ٤٩ .
(٣) ينظر : فتح القدير : ٢ / ٢٦٥ .

يتعرفون عليهم من خلال ملامح وجوههم ـ فيتوجهون لهم باللوم بقولهم : أما تنظرون أنّ جمعكم لأموالكم وإقراركم وتجبرّكم وتكبّركم عن القبول بالحق لمْ ينفعكم بأيّ شيء ، فأين ذهبت أموالكم ؟ وأين ذهب أعوانكم ؟ وما الذي حصدتموه من مواقفكم وصفاتكم السيئة[1] ؟ وهذا المعنى لمْ يكنْ لائقاً إلا بمن يُلقى عليه التكبيت والتوبيخ[2].

ويعود أصحاب الأعراف فيُلقون على أصحاب النّار تكبيتاً وتوبيخاً ، وألماً نفسيّاً على ما همْ فيه من ألم العذاب الجسديّ منْ خلال تعبيرهم : { أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ } إذْ أشاروا ((إلى فريق أهل الجنّة ، كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم ، وربما هزأوا بهم ، وانفوا منْ مشاركتهم في دينهم ، فإذا رأى منْ كان يدّعي التقدم حصول المنزلة العالية ، لمنْ كان مستضعفاً عنده قلق لذلك ، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه))[3] .

ومنْ خطاب أصحاب الأعراف لأهل الجنّة قوله تعالى وتبارك : { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ ..... }[4] ، إنّ هذا الخطاب القرآنيّ يفيض ليونة ولطفاً ، ويظهر ذلك من السلام الذي يُلقيه أصحاب الأعراف على أهل الجنّة بقولهم : { سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ } . فإنّ سلام أصحاب الأعراف هذا سلام التحية والإكرام[5] . وبما أنّ هذا السلام يُلقى على المخاطبين ـ أصحاب الجنّة ـ وهمْ في الجنّة . وإنّ السلامة الحقيقيّة لم تكن إلا في الجنة ، فذلك يعني سلامتهم الحقيقيّة ، لأنّ في الجنّة يكون البقاء دون الفناء ، والغنى دون الفقر ، والعزّة دون الذلة ، والصحة دون السُقم[6] .

استعمل القرآن الكريم التعبير بالنكرة دون المعرفة في قوله تعالى : { سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ } . وبما أنّ التعبير بالنكرة يُفيدُ معنى الشمول العموم[7] . ممّا لا توحي به المعرفة ، فإنّ ذلك يُعطي دلالة لما يتضمنّه هذا السلام منْ معاني الحبّ والتشريف والإكرام وما إلى ذلك ، فهو سلام عامّ شامل لا محدود .

---

(١) ينظر : الأمثل : ٤ / ٣٨١ .
(٢) ينظر : تهذيب التفسير الكبير : ٨ / ٢٦٢ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الأعـــــراف : ٤٦ .
(٥) ينظر : التفسير الكاشف : ٨ / ٣٣٣ .
(٦) ينظر : مفردات ألفاظ القرآن : ٤٢١ (سلم) .
(٧) ينظر : النحو الوصفيّ من خلال القرآن الكريم : ٣٩٩ .

جاءت في كتاب الله الكريم كثيرٌ من آياته التي تمْ استعمال حروف الجرّ فيها استعمالاً استعاريًا ، ومنْ خلال هذا الاستعمال الاستعاريّ يطفو على تركيب الآية الإيحاء والخصوبة في تعبيرها عن المعنى الذي يرجوه الكتاب الكريم[1] . ونلحظ مجيء حرف الجرّ (على) دون غيره من حروف الجرّ الأخرى ، إذ قال تعالى : { سَلَمٌ عَلَيْكُمْ } إنّ الحرف (على) يدلّ في أصل معانيه على الاستعلاء ، وهذا يُعطي معنىً مجازيًا يوحي بالأمان والحنان والاطمئنان ، فكأنّ هذا السلام يُغطي أصحاب الجنّة بغطاء يُشعرهم بالسكون والاستقرار ، لأنه سلام عليهم فهو يَعلوهم .

(١) ينظر : الاستعارة في القرآن الكريم : أحمد فتحي رمضان (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة الموصل: ٩٧ .

الخاتمة

الخاتمة (خلاصة بأهم نتائج البحث)

الحمد لله ربّ العالمين ، وصلى الله على رسوله الصادق الأمين محمّد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين .

بعد هذه الصحبة الكريمة مع كتاب الله الكريم من خلال الوقوف عند اللطف في تعبير خطابه لا أقول ولا أدعي أني كنت مُلمّاً بما يتعلق بهذا الموضوع فمهما قدّمت وقدّم غيري فإننا نبقى عاجزين أمام هذا الكلام الربانيّ العظيم ، ذلك أنّ كتاب الله غزير بلطائفه عظيم بأسراره التي يضيق الإلمام بها في هذا البحث المتواضع ، والقرآن الكريم كلام الله المعجز الذي لا يحيط به إلا نبيّ أو وصيّ نبي ، وبعد فإن لكلّ عمل خاتمة ونتيجة وها أنا ذا وصلت إلى خاتمة هذا البحث ونتائجه .

ـ كان القرآن الكريم في غاية اللطف في التعبير عن الأمور الجنسيّة ، إذ عمد إلى إنتقاء ألفاظه في هذا المجال على أساس العفّة والنزاهة والرفعة والأدب والابتعاد عن التصريح عن عملية الجماع لكونها تخدش شعور المخاطب وتمسّ حياءه وليس من اللائق إيرادها في خطابات القرآن الجليلة المهذبة فلجأ إلى استعمال الأساليب غير المباشرة في التعبير وقد تمثّل هذا بأسلوب الكناية ، فجاءت الصور القرآنية الكنائية تحمل طابعاً اشارياً تماشياً مع أسلوب اللطف في التعبير وانسجاماً مع جلالة لغة القرآن وعلوّ أدبها .

ـ استعمل القرآن الكريم ألطف التعابير في حديثه عن العلاقة الزوجية ، فكانت تعبيراته في هذا المجال تفيض رقة وإيحاءً وجمالاً ، والتعبير القرآني بهدف التأثير وتقريب الزوجين واستمالة بعضهما ببعض لجأ إلى استعمال اللطف في خطابه مع الأزواج إشعاراً منه بأهمية هذه العلاقة وما يجب أن يسودها من عناصر الترابط والمحبة والسكينة والألفة .

ـ هناك بعض الأمور التي يُستحيى ويُخجل ويُستثقل ذكرها ، وهذه الأمور تتعلق بأحوال الإنسان الخاصة وقد تلطف القرآن في تعبيره عنها وذلك بعدم التصريح بها والدلالة عليها بتعابير مستحسنة وعفيفة ولائقة ، وإنّ التعبير القرآني راعى بهذا كرامة المخاطبين وعدم المساس بمشاعرهم وحيائهم ، وراعى كذلك ما تميز القرآن الكريم من قدسيّة وروعة وأدب في الخطاب .

ـ خلص البحث إلى أنّ التعبير القرآني كان لطيفاً رقيقاً في بسطه الأمور التي تتعلق بالأمور التعاملية ؛ فإنّ هذه الأمور تغلب عليها صيغة الأمر والنهي لذلك عمد التعبير إلى استعمال ألين التعابير وأرق الأساليب ؛ فلم يلجأ القرآن في تعبيره إلى الأمر بقوة والنهي بشدة مع المخاطبين إنما جاءت تعبيراته على أساس ترغيب المخاطبين واستمالتهم وتوجيه الخطاب الذي يحرّك ويستجيش العواطف والوجدانات والنفوس .

ـ عرض القرآن الكريم أمثلة رائعة في لطف التعبير فيما يتعلق بأسلوب الدعاء ، وقد تمثل ذلك في أدعية الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام) وعباد الله المتقين ، فقد وردت تلك الأدعية يكسوها طابع التأدّب في الخطاب ، إذ يظهر عليها الخضوع والتذلل لله تعالى ، واستعمال أليق الأساليب في التضرّع والمناجاة والطلب ، زيادة على ما تتسم به تلك الأدعية من طابع جمالي يتأتى من انتقاء أعذب العبارات وألينها وأسلسها من الناحية الصوتية وغير ذلك مما يتلاءم مع اللطف في الخطاب القرآني .

ـ الخطاب الصادر من الله تعالى ذكره لأنبيائه وأوصياء أنبيائه (عليهم السلام) خطاب مفعم بلطفه ورفقه ، وقد كان التأدّب سمة بارزة على هذا الخطاب ، فتراه ينحو جانب التسلية والإيناس والإكرام والإنعام والرعاية وما إلى ذلك ، وقد شغل الخطاب الموجّه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مساحة بارزة ، فقد أكثر الله تعالى ذكره من التلطف والترفق بحبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ـ يتسم خطاب الأنبياء عليهم السلام بمجيئه بمنتهى اللطف في التعبير ، فجاءت أساليبه وصوره في أعلى مستويات التأدّب في الخطاب ، إذ يظهر عليها طابع النصح والعطف والإشفاق والترحم بالمخاطبين ، واللجوء إلى أكثر الوسائل والأساليب إقناعاً وتأثيراً ، ومواجهة المخاطبين بالخلق الحسن والموعظة الحسنة دون مقابلتهم بالمثل مهما اشتدت المواجهة وبلغت درجة الجدال والغلظة لدى المخاطبين ، ويتضح هذا جلياً في خطاب الأنبياء لأقوامهم ، وهناك بعض الخطابات التي يطفو عليها طابع الحنو والعطف والشفقة والتواضع في المواجهة كما هو الحال في خطابات الأنبياء الموجّه إلى الأقرباء كخطاب إبراهيم لآزر وخطاب نوح لأبنه ، ومن خطابات الأنبياء ما يبرز فيها طابع التسلية وتطيب النفس واستعمال التعابير الرقيقة السلسة كما في خطاب عيسى لأمه مريم (عليهما السلام) ، كما إن بعض الخطابات يتجلى فيها لطف التعبير وأدبه بين كلا الطرفين وفي خطاب يوسف وإخوته وإبراهيم وإسماعيل .

ـ إن أسلوب التعبير القرآني يتباين في الشدة واللين في الخطاب ، فيكون الخطاب القرآني شديداً قوياً في المواطن التي تستدعي ذلك كما هو الحال في الخطاب الموجه للكافرين والظالمين دنيوياً كان أو أخروياً ، ويكون لطيفاً ليناً في المواطن التي تتطلب ذلك كما هو الحال في الخطاب الموجه للمؤمنين دنيوياً كان أم أخروياً ، وقد يشتد الخطاب ويلين مع أنه يوجه إلى نفس المخاطبين ولكن في أحوال ومواطن مختلفة كالخطاب الموجه للمؤمنين والخطاب الموجه للناس .

ـ لقد كان للدلالة الصوتية أثر بالغ في تكوين المعنى التي توحي باللطف في التعبير ، وقد ألفينا في تعبير القرآن إنسجاماً وتناسباً كبيراً بين طريقة تركيب مفرداته وعباراته وبين المعنى الذي تعبر عنه تلك المفردات والتراكيب الذي يوحي باللطف في التعبير .

ـ كان التعبير القرآني في غاية الإبداع والرقيّ والتفنن في استعمال الأساليب التعبيرية التي تصب في موضوع اللطف ، فقد عمد القرآن إلى إيراد أكثر التعابير إيحاءً وتوهجاً وإشعاعاً باللطف ، الأمر الذي يجعل المخاطَب يهتز شوقاً ويمتلئ هدوءاً وسكينة وإيناساً لدى تلقيه خطاب القرآن ، فخطاب القرآن اللطيف ترتاح له الآذان وتهتز له المشاعر والأحاسيس وتستقر له النفوس .

المصادر

أولاً : المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- آداب ليالي الزفاف وشهر العسل ، حبيب بدرا ، دار المرتضى ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م .
- آلاء الرحمن في تفسير القرآن ، علي محمد جواد البلاغي النجفي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ــ لبنان .
- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق : سعيد المندوب ، دار الفكر ، لبنان ، ط ١ ، ١٤١٦ هـ ــ ١٩٩٦م .
- أحاديث في الدين والثقافة والإجتماع ، حسن موسى الصفار ، أطياف للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ــ القطيف ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م .
- أدب القصة في القرآن الكريم ــ دراسة تحليليّة كاشفة عن معالم الإعجاز ، د. عبد الجواد محمّد المحص ، الدار المصريّة ، الإسكندريّة .
- أساس البلاغة ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م .
- أساليب المعاني في القرآن ، السيّد جعفر السيد باقر الحسيني ، مؤسسة بوستان كتاب ، قم ، ١٤٢٧ ق .
- أسرار التشابه الأسلوبيّ في القرآن ، د. شلتاغ عبود ، دار المحجّة البيضاء ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣ م .
- أسرار العارفين في شرح كلام مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) ، آية الله السيّد جعفر السيّد محمد باقر بحر العلوم (١٢٨١ ــ ١٣٧٧هـ) ،

ضبطه وعلّق عليه : عليّ الخراساني ، منشورات المكتبة الحيدريّة ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ ١٣٨٨ ش .

- الأسس الجماليّة في النقد العربي ، د. عزّ الدين إسماعيل ، دار الشؤون الثقافيّة العامّة ، بغداد ، ١٩٨٦ م.
- أسس علم اللغة ، ماريوباي ، ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر ، منشورات جامعة طرابلس كليّة التربية ، ١٩٧٣ م.
- الإسلام والحياة الجنسيّة ـ دراسة تحليليّة مستمدة من القرآن الكريم ، محمود بن الشريف ، مكتبة القدسيّ ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
- أسلوب الدعوة في القرآن الكريم ، السيد محمّد حسين فضل الله ، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ، ط٣ ، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م
- الإشارة الجماليّة في المثل القرآني ، د. عشتار داود محمّد ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥م .
- الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم ـ دراسة إحصائيّة ، د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب نشر توزيع طباعة ، ط١ ، ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٣ م .
- إشراق من القرآن الكريم ، آية الله السيّد محمود الطالقاني ، تقديم وترجمة : د. عبّاس الترجمان ، مؤسسة الهدى للطبع والنشر ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م .
- إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، الحسن بن محمّد الدامغاني ، تحقيق : عبد العزيز سيّد الأهل ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٠ م .
- الأصوات اللغويّة ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصريّة ، ٢٠٠٧م .
- أضواء على دعاء كميل ، عزّ الدين بحر العلوم ، مطبعة الديواني ، بغداد

- أضواء على متشابهات القرآن ، الشيخ خليل عطيّة ياسين ، توزيع منشورات ذوي القربى ، ط١ .
- الإعجاز الفنيّ في القرآن ، عمر السلامي ، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد الله ، تونس ، ١٩٨٠ م .
- إعجاز القرآن البيانيّ بين النظريّة والتطبيق ، د. حنفي محمّد شرف ، الكتاب الرابع ، ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة ، الشيخ مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦ هـ) ، راجعه وعلّق عليه المهندس الشيخ زياد حمدان ، مؤسسة الكتب الثقافيّة للطباعة والنشر والتوزيع فقط ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م
- الإعجاز القرآني أسلوباً ومضموناً ، د. شلتاغ عبود ، دار المرتضى ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣ م .
- الإعجاز القرآني ـ مناهجه وجوهه أبرز المؤلفين والمؤلفات فيه ، د. أحمد جمال العمري ، قدّم له : د. محمّد زغلول سلام ، منشورات أسمار ، باريس .
- الأفكار والأسلوب ، أ . ف . تشتشرين ، ترجمة حياة شراره ، دار الشؤون الثقافية العامّة .
- الأمالي ، الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) ، تحقيق : حسين الأستاذ ولي ، علي أكبر الغفاري ، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ، ط٢ ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م .
- أمثال القرآن ، آية الله العظمى مكارم الشيرازي ، إعداد وتدوين أبو القاسم عليان نزادي ، تحسين البدري ، مؤسسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، قم ، ط٢ .
- أمثال القرآن الكريم ، الشيخ متولي الشعراوي ، أشرف عليه واعتنى به : أحمد الزغبي ، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان .

- الأمثال في القرآن الكريم ، د. محمّد جابر الفيّاض ، دار الشؤون الثقافيّة العامّة ، ط١ ، ١٩٨٨ م .
- الأمثال في القرآن الكريم ــ دراسة مبسّطة حول الأمثال الواردة في الكتاب العزيز ، العلامة جعفر السجاني (دام ظله) ، مؤسسة الأمام الصادق (عليه السلام) ، ط١ ، ١٤٢٠ هــ . ق .
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، العلامة ناصر مكارم الشيرازي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨ هــ ٢٠٠٧ م .
- الأنبياء ــ حياتهم قصصهم ، عبد الصاحب الحسيني العاملي ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٣٩١ هــ ١٩٧١ م .
- الأنظار التفسيريّة في تراث المرجع الديني الكبير الشهيد محمد الصدر (قدس) ، من إصدارات مؤسسة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) لإحياء تراث آل الصدر ، المحبين للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤٢٠ هــ .
- البحر المحيط في التفسير ، محمد بن يوسف المسمى بــ (أبي حيان الأندلسي الغرناطي)، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٢ هــ ١٩٩٢ م .
- البرهان في إعجاز القرآن أو بديع القرآن ، إبن أبي الاصبع المصري (٥٨٥ ــ ٦٥٤ هــ) ، تحقيق : د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثي ، منشورات المجمع العلمي ، ١٤٢٦ هــ ٢٠٠٦ م .
- البرهان في علوم القرآن ، محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤ هــ) ، خرج أحاديثه وقدم له وعلق عليه : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٠٨ هــ ١٩٩٨ م .
- تاج العروس ، السيد محمد مرتضى الزبيدي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ،

- تذكرة الفقهاء ، العلامة الكبير جمال الدين الحسن بن يوسف بن مطهّر الحليّ (ت ٧٢٦ هـ) ، منشورات المكتبة المرتضويّة لإحياء الآثار الجعفريّة .
- التراكيب اللغوية ، أ . د. هادي نهر ، دار اليازوري العلميّة للنشر والتوزيع ، عمّان ــ الأردن ، الطبعة العربيّة ، ٢٠٠٤ م .
- التشكيل الصوتي في اللغة العربيّة ، سلمان العانيّ ، ترجمة ياسر الملاح ، النادي الثقافي الأدبي بجدّة ، ط١ ، ١٩٨١ م .
- التصوير البيانيّ ــ دراسة تحليلية لمسائل البيان ، د. محمّد أبو موسى ، دار التضامّن للطباعة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م .
- التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ــ دراسة دلالية مقارنة ، عودة خليل أبو عودة ، مكتبة المنار ، الأردن ــ الزرقاء ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م .
- التعابير القرآنيّة ، إبتسام مرهون الصفار ، مطبعة الآداب ، النجف ، ١٩٦٦ م.
- التعبير الفنيّ في القرآن الكريم ، بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤ م.
- تفسير البصائر ، آية الله العظمى إبي محمد يعسوب الدين أرستكار الجويباري ، الناشر : مكتبة المؤلف ، ط١ .
- التفسير البياني للقرآن الكريم ، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ، دار المعارف بمصر ، ط ٨ .
- تفسير البيضاويّ ، البيضاويّ (ت ٦٨٢ هـ) ، دار الفكر .
- تفسير الخطيب الشربيني المُسمّى السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، الشيخ محمّد بن أحمد الخطيب الشربيني المعرّي (ت ٩٧٧ هـ) ، خرّج آياته وأحاديثه وعلق عليه :

إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .

- تفسير السمرقنديّ ، أبو الليث السمرقندي (ت ٣٨٣٥ هـ) ، تحقيق : د. محمود مطرجي ، دار الفكر .
- تفسير الصافيّ ، محسن الملقب بالفيض الكاشاني (قدس سره) ، (ت ١٠٩١ هـ) مكتبة الصدر بطهران ، ط٣ ، ١٣٧٩ ش .
- تفسير أبي السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- تفسير القرآن الكريم ، العلامة السيد عبد الله شبّر (ت ١٢٤٢ هـ) ، صححه وأشرف على طباعته فضيلة الشيخ حسين الأعلمي ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .
- التفسير الكاشف ، العلامة محمّد جواد مغنية (رحمه الله) ، دار الكتاب الإسلامي ، ط٣ ، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م .
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، فخر الدين محمّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن عليّ التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤ ــ ٦٠٤ هـ) ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .
- تفسير المراغي ، الأستاذ أحمد مصطفى المراغي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ ٢٠٠١ م .
- تفسير مقاتل بن سليمان ، مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) ، تحقيق : أحمد فريد ، دار الكتب العلميّة ، ط١ ، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م .
- تلخيص البيان في مجازات القرآن ، الشريف الرضيّ ، حققه وقدّم له ووضع فهارسه : محمّد عبد الغنيّ حسن ، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط٢ ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

- تلخيص التمهيد ، العلامة محمّد هادي معرفة (رحمة الله) ، منشورات ذوي القربى ، قم المقدّسة ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .
- تهذيب التفسير الكبير ، فخر الدين الرازيّ ، هذبه وعلق عليه : حسين بركة الشامي ، مؤسسة دار السلام ، ط١ ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨ م .
- تهذيب اللغة ، أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهري ، (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) ، تحقيق الأستاذ : أحمد عيد ، مراجعة الأستاذ : عليّ محمّد البجاوي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- جامع البيان عن تأويل القرآن ، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ (ت ٣١٠ هـ) ، حققه وخرّج أحاديثه وعلق عليه : أحمد محمّد شاكر ومحمود محمّد شاكر ، دار المعارف بمصر .
- جامع الدروس العربيّة ، الشيخ مصطفى الغلاييني ، راجع هذه الطبعة ونقحها : سالم شمس الدين ، دار الكوخ للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .
- الجدول في إعراب القرآن ، محمود صافيّ ، مطبعة النهضة ، قم ، ط١ ، ١٤١١هـ ١٩٩١م .
- جمال المرأة وجلالها ، الشيخ جواديّ آمليّ، دار الهاديّ للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٥ ، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .
- جماليات المفردة القرآنية ، أحمد ياسوف ، دار المكتبي ، دمشق ، ط١ ، ١٩٥٤ م .
- الحبّ في العلاقات الزوجيّة ، محمود الموسوي ، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .
- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد أمين الشافعي ، راجعه : هاشم محمد علي ، دار طوق النجاة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م .

- حقيقة عالم الموت ــ من وقت البعث والنشور إلى المحشر وأحوال القيامة ، العلامة المجلسي ، حققه واعتنى به : محسن عقيل ، ذوي القربى ، ط١ .
- خصائص التعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة ، د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .
- خطاب الأنبياء في القرآن الكريم ، د. عبد الصمد عبد الله محمد ، مكتبة الزهراء ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
- الخطاب القرآني ــ دراسة العلاقة بين النص والسياق (مثل في سورة البقرة) ، د. خلود العموش ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .
- خطرات في اللغة القرآنيّة ، د. فاخر الياسري ، دار الشؤون الثقافيّة العامّة ، بغداد ــ أعظمية .
- خواطر حول الذنوب والأدعية ، حيدر اليعقوبيّ ، ط٢ ، النجف الأشرف ، ١٤١٥هـ .
- دراسات أدبيّة لنصوص من القرآن ، محمد المبارك ، دار الفكر ، ط٤ ، ١٣٩٢هـ ١٩٧٣م .
- دراسات فنيّة في صور القرآن الكريم ، د. محمود البستاني ، مؤسسة الطبع التابعة للإستانة الرضويّة المقدّسة ، ط١ ، ١٣٢١ق ١٣٧٩ ش .
- دراسات في قواعد اللغة العربية ، عبد المهدي مطر ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٣٨٥ هـ .
- دراسة الصوت اللغويّ ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٦م .
- درّة التنزيل وغرّة التأويل ، الخطيب الإسكافيّ ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

- دروس من القرآن ، السيد أحمد زكي تفاحة ، دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦ م .
- الدعاء ــ تربية وعبادة ، مؤسسة البلاغ ، مفاهيم إسلاميّة .
- الدعاء ــ حقيقته آدابه آثاره ، الأستاذ علي موسى الكعبيّ ، مركز الرسالة ، ط٢ ، ١٤٢٦هـ .
- دلالة الألفاظ ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٣ م .
- دلالة الألفاظ العربيّة وتطورها ، مراد كامل ، معهد الدراسات العربيّة العالية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
- ديوان الأدب ، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي ، تحقيق : د. أحمد مختار عمر ، مراجعة : د. إبراهيم أنيس ، الشركة المصرية العامة للنشر ، ط١ ، ٢٠٠٣ م .
- روح الدين الإسلاميّ ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، أشرف على تنقيح هذه الطبعة : شرف الدين خليل سكر ، مطابع دار الكتب ، بيروت ، ط٦ ، ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الآلوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ــ لبنان .
- شذا العرف في فنّ الصرف ، أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي ، حققه وعلق عليه وقدّم له : محمد بن فريد ، المكتبة التوفيقيّة ، القاهرة ، مصر .
- شرح المراح في التصريف ، العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت ٨٥٥ هـ) ، حققه وعلق عليه : الدكتور عبد السّتار جواد ، ط١ ، طبعة مؤسسة المختار ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م .
- شرح شافية ابن الحاجب ، الشيخ رضيّ الدين محمد بن الحسن الإستراباذي الخوليّ(٦٨٦ هـ) ، شرح شواهدها : عبد القادر البغدادي صاحب خزانة

الأدب (ت ١٠٩٣ هـ) ، حققها وضبط غريبها وشرح مُبهمها الأساتذة : محمد نور الحسن ، محمد الزفزاق ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥ م .

- الصرف الوافيّ ، هادي نهر ، جامعة بغداد ، بغداد .
- الصوت اللغوي ودلالاته في القرآن الكريم ، د. محمد فريد عبد الله ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٨ م .
- الصورة الفنية في المثل القرآنيّ ، دراسة نقدية وبلاغيّة ، د. محمد حسين علي الصغير ، رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ، بغداد .
- الصورة في التشكيل الشعري ، د. سمير علي الدليمي ، دار الشؤون الثقافية العامّة ، بغداد ، ط١ ، ١٩٩٠م .
- العفاف بين السلب والإيجاب ، آية الله العظمى الشيخ محمد أمين زين الدين (قدس) ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩ م .
- العقل البشري في تفسير القرآن ، آية الله العظمى محمد طاهر آل شُبر الخاقاني ، مطبعة : مهر ، إيران ، قم .
- علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م .
- علم اللغة العام ـ الأصوات ، د. كمال محمد بشر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٧٩ م .
- علم المعاني ـ دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع ، الإحساء ، ط٢ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .

- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) ، ضبطه وصححه : أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .
- فروع الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .
- الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري (ت٣٩٥ هـ) ، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي ، الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين لقم المشرفة ، ط١ ، ١٤١٢ هـ .
- فقه اللغة ، د. عبد الحسين المبارك ، طبع على نفقة جامعة البصرة ، ١٩٨٦م .
- فقه اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي، ملتزم الطبع والنشر لجنة البيان العربي ، ط٦ ، ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .
- فقه اللغة العربية ــ فصول في نشأته ومباحث في تأصيلات معارفه ، د. عبد الحسين مهدي عواد ، مؤسسة العارف للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ ــ ٢٠٠٨ م .
- فقه اللغة العربية ، د. كاصد ياسر الزبيدي ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م .
- فنون بلاغيّة ــ البيان والبديع ، د. أحمد مطلوب ، دار البحوث العلميّة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط١ ، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .
- فنون في غرفة النوم ، محمد مختار ، مؤسسة الأنوار ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م .
- في ظلال القرآن ، سيّد قطب ، طبع بدار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاه ، ط١ .
- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ) ، دار العلم ، بيروت ــ لبنان .

- القرآن وعلم النفس ، عبد الوهاب حمودة ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٢ م.
- القصص القرآنيّة ، دراسة ومعطيات وأهداف ، آية الله جعفر السبحانيّ ، دار جواد الإئمة (عليهم السلام) ، بيروت ــ لبنان ، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .
- القصص القرآنيّة ــ مُقتبس من تفسير الأمثل ، آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازيّ ، إعداد وتنظيم السيّد حسين الحسيني ، دار الكتاب ، لندن ، ط١ ، ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .
- قواعد التجويد والإلقاء الصوتيّ ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، لجنة إحياء التراث الإسلاميّ ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م .
- قواعد النقد الأدبيّ ، لاسل كروجي ، نقله إلى العربية : د. محمد عوض محمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط٣ ، ١٩٥٤ م .
- القيامة في القرآن ، الشهيد دستغيب ، دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦ م .
- كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، السيّد يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ اليمنيّ، مراجعة وضبط وتدقيق : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
- كتاب العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٠ هـ) ، تحقيق : د. مهدي المخزومي ، د. ابراهيم السامرائي ، مؤسسة دار الهجرة ، ط٢ ، ١٤٠٩ هـ .
- كشاف إصطلاحات الفنون ، محمد علي الفاروقي التهاونيّ ، تحقيق : لطفي عبد البديع ، ترجم النصوص الفارسية : د. عبد المنعم محمد حسنين ، مراجعة الأستاذ : أحمد أمين الخولي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٦٣ م

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ)، ضبط وتوثيق : أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ــ لبنان ، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨ م .
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي المتقي إبن حسام الدين الهنديّ(ت ٩٧٥ هـ ق) ، تصحيح : صفوة السقا ، مكتبة التراث الإسلاميّ ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٧ هـ . ق .
- اللباب في تفسير الكتاب ، العلامة السيّد كمال الحيدري ، دار فراقد ، ط١ ، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م .
- لسان العرب ، إبن منظور ، طبعة جديدة ومحققة ومشكولة شكلا كاملا ومذيّلة بفهارس مفصلة ، دار المعارف ، القاهرة .
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامرائي ، دار عمان ، بيروت ، ط٣ ، ٢٠٠٣ م .
- مئة موضوع أخلاقيّ من القرآن والحديث ، آية الله العظمى مكارم الشيرازيّ مع مشاركة مجموعة من الفضلاء ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ط٢ ، ١٣٨٥ هـ . ش .
- مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٠ ، ١٩٧٧ م .
- متشابه القرآن ، القاضي عبد الجبّار أحمد الهمذاني ، (ت ١٤٥هـ) ، تحقيق : عدنان زرزور ، دار التراث للنشر .
- متشابه القرآن ومختلفه ، الشيخ محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني (رضوان الله تعالى عليه) ، (٥٨٨ هـ) ، انتشارات بيدار ، ط٣ .
- مجاز القرآن ــ خصائصه الفنية وبلاغته العربية ، د. محمد حسين علي

- المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ، آية الله العظمى محمد باقر الحكيم (قدس) ، المطبعة : العترة الطاهرة ، النجف الأشرف ، ٢٠٠٦ م .
- المجتمع والتأريخ ، الشهيد مرتضى مطهري ، تحقيق وتصحيح : عبد الكريم الزهيري ، تعريب : محمد علي آذرشب ، الناشر : قلم مكنون ، ط١ ، ٢٠٠٨م .
- مجمع البحرين ، فخر الدين الطريحي ، (ت ١٨٠٥ هـ) ، تحقيق : أحمد الحسيني ، مؤسسة التأريخ العربي ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م .
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، مؤسسة التأريخ العربيّ للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨م .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ .ق) ، تحقيق : عبد الله محمد درويش ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢ هـ . ق .
- مدارج السالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ، إبن القيم الجوزية ، تحقيق : حامد محمد الفقي ، مطبعة السنّة المحمدية ، القاهرة .
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفيّ (ت ٧١٠ هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة .
- مدخل إلى فقه اللغة العربية ، د. أحمد محمد مقدور ، دار الفكر المعاصر ، ط٣ ، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م .
- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، د. عماد خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧ م .

- المرأة في القرآن ، السيّد الطباطبائي (رحمه الله) ، تحقيق : محمد مرادي ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م .
- المرأة والمناهج التربويّة ، الشيخ مجيد الصائغ ، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م .
- المعاد في القرآن الكريم ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، صححه واعتنى به : محسن عقيل ، دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م .
- مع الأنبياء في القرآن الكريم ــ قصص دروس وعبر من حياتهم ، عفيف عبد الفتاح طبارة ، دار العلم للملايين ، بيروت ــ لبنان ، ط٢٥ ، ٢٠٠٧ م .
- معاني الأبنية في العربية ، د. فاضل صالح السامرائي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ط١ ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .
- معاني القراءات ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق : الشيخ أحمد مزيد المزيد ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٩٩م .
- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (١٤٤ ــ ٢٠٧ هـ) ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجّار ، مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة ، ط٣ ، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م .
- معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧ م
- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الثقافة العربية ، ١٩٦٩ م .

- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية ، عليه عزت عياد ، دار المريخ ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
- معجم علم اللغة النظري ، محمد علي الخولي ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٩١ م .
- معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط٢ ، ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
- المعجم وعلم الدلالة (للطلاب المنتظمين والمنتسبين) ، د. سالم سليمان الشمّاخ ، ١٤٢٨هـ ، موقع لسان العرب

  http : // www.angelfive . com /tx4/lisan

  http :// www.khamash.ci . net.
- مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ، تصحيح : أحمد سعد علي ، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبي وأولاده ، مصر ، ط١ ، ١٩٣٧ م .
- مفردات ألفاظ القرآن ، العلامة الراغب الأصفهانيّ ، (ت ٤٢٥هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، طليعة النور ، ط٢ .
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم إبن الزبير الثقفي الغرناطيّ (ت ٧٠٨هـ) ، وضع حواشيه : عبد الغنيّ محمد علي الفاسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م .
- من أساليب التعبير القرآني ـ دراسة لغويّة وأسلوبيّة في ضوء النص القرآني ، د. طالب محمد اسماعيل الزوبعيّ، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٦م .

- من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ، ملتزم الطبع والنشر : مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ط٣ .
- من بلاغة النظم العربي ، د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب ، بيروت .
- من جماليات التصوير في القرآن الكريم ، محمد قطب عبد العال ، تصدرها رابطة العالم الإسلاميّ ، مكة المكرّمة ، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- مَنْ لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨م .
- الموازنات الصوتيّة في الرؤية البلاغية ، د. محمد العمري ، منشورات دراسات سال ، ط١ ، ١٩٥١م .
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن ،آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري ، انتشارات دار اليقين ، ط٢ ، ١٤٢٨ هـ ٢٠٠٧م.
- الميزان في تفسير القرآن ، العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي (رحمه الله) ، مطبعة ثامن الحجج (عليه السلام) ، إيران ــ قم ، ط١ .
- نحو القرآن ، أحمد عبد الستار الجواري ، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ ، بغداد ، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م .
- النحو الوافي ــ مع ربطه بالأساليب الرفيعة والحياة اللغويّة المتجددة ، عباس حسن ، توزيع انتشارات ناصر خسرو ، قم .
- النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم ، د. محمد صلاح الدين مصطفى بكر ، دار غريب ، القاهرة .
- نظام حقوق المرأة في الإسلام ، الشهيد مرتضى المطهريّ ، دار الكتاب الإسلامي ، ط١ ، ٢٠٠٥ م .

- النظرة القرآنية للمجتمع والتأريخ ، الأستاذ محمد تقي مصباح اليزدي ، تقريب : محمد عبد المنعم الخاقاني ، دار الروضة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .
- نفحات القرآن ، الشيخ عبد اللطيف السبكي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ، الكتاب الثامن ، ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م .
- نفحات القرآن ، أسلوب جديد في التفسير للقرآن الكريم ، آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء ، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ط١ ، إيران ــ قم ، ١٣٨٤ ش ــ ١٤٢٦ هـ .
- نفحات قرآنيّة ، علي محمد علي دخيل ، دار التعارف للمطبوعات ، ط١ ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩ م .
- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين ، السيّد نعمة الله الجزائري (طاب ثراه) ، قدّم له وعلق عليه : علاء الدين الأعلميّ، ذوي القربى ، ط١ .
- الوافي في كيفيّة ترتيل القرآن الكريم ، جمع وترتيب احمد محمود عبد السميع الشافعي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ــ لبنان ، ط١ ، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م .
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، عن هارون بن موسى القارئ ، تحقيق الأستاذ : د. حاتم صالح الضامّن ، دار البشير ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٢م .

ثانياً : الرسائل والأطاريح

- آيات الإيمان في القرآن الكريم ــ دراسة فنية ، خولة صالح صيهود الكناني (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة القادسية ، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م .

- أدبية النصّ القرآني ــ دراسة جمالية ، مولود محمد زايد البيضاني (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة ، ١٤٢٨ هـ ــ ٢٠٠٧ م .
- الاستعارة في القرآن ، أحمد فتحي رمضان (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة الموصل ، ١٩٨٨ م .
- الإيقاع أنماطه ودلالاته في لغة القرآن الكريم ، عبد الواحد اسكندر (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة البصرة ، ١٩٩٥ م .
- البناء الصوتي في السور المكية ، إبراهيم صبر محمد الأزيرجاوي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة ، ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣ م .
- التراكم الدلاليّ في النص القرآني ، مجيد طارش عبد (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية التربية للبنات ــ جامعة بغداد ، ١٤٢١ هـ ــ ٢٠٠٠م .
- التشكيل الصوتي وأثره في دلالة سورة آل عمران ، جاسم غالي رومي المالكي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة البصرة ، ١٤١٩ هـ ــ ١٩٩٨ م .
- التطور الدلاليّ للألفاظ في النصّ القرآني ــ دراسة بلاغيّة ، جنان منصور كاظم الجبوري (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية التربية (ابن رشد) ــ جامعة بغداد ، ١٤٢٦ هـ ــ ٢٠٠٥ م .
- الحوار في القرآن الكريم ، إسماعيل إبراهيم علي محمد السامرائي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الشريعة ــ جامعة بغداد ، ١٤١٠ هـ ــ ١٩٨٩ م .
- الدلالة النفسيّة للألفاظ في القرآن الكريم ، محمد جعفر محيسن (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة القادسية ، ١٤٢٣ هـ ــ

- الصورة السمعيّة ودلالاتها في القرآن الكريم ، عباس حميد السامرائي (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة بغداد ، ٢٠٠١ م .
- صورة المرأة في القرآن الكريم ــ دراسة فنيّة ، أروى عبد الحميد محمود السامرائي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية للبنات ــ جامعة بغداد ، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠م .
- الكناية في القرآن الكريم ، أحمد فتحي رمضان (أطروحة دكتوراه مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة بغداد ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م .
- ما في النحو العربي وأساليب استعمالها القرآني ، مهند ذياب فيصل (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة ، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م .
- المفردة القرآنيّة بين التنكير والتعريف بـ (ال) ــ دراسة نحويّة دلاليّة ، عبد المحسن لفتة فارس الفيّاض(رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة ، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م .
- المكان ودلالاته في القرآن الكريم ــ دراسة موضوعية وفنيّة ، علي عبد محيي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية التربية ــ جامعة البصرة ، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠ م .
- النظم القرآنيّ في سورة ق ــ دراسة تحليليّة ، عدنان خالد فضل المرابحي (رسالة ماجستير مخطوطة) ، كلية الآداب ــ جامعة البصرة ، ١٤٢١ هـ ٢٠٠٠ م .

ثالثاً : البحوث

- الأسلوبيّة الصوتيّة بين النظريّة والتطبيق ، د. ماهر مهدي هلال ، مجلة آفاق عربيّة ، العدد (١٢) ، السنة السابعة عشر ، جمادي الآخرة ــ رجب ، ١٤١٣ هـ ــ كانون الأول ١٩٩٢ م .
- الإيحاء الصوتي .. في النص القرآني ، د. زهير غازي زاهد ، مجلة ينابيع ، مؤسسة الحكمة الثقافيّة الإسلاميّة ، العدد (١٧) ، السنة الثالثة ، رجب ــ شعبان ، ١٤٢٧ هـ ــ آب ــ أيلول ٢٠٠٦ م .
- العربيّة وفكرة اللامساس ــ بحث في ضوء علم اللغة الحديث ، د. علي زوين ، مجلة المورد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العدد (٣) ، السنة السادسة والثلاثون ، ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م .
- من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم ، د. محمد سليمان العبد ، المجلة العربيّة للعلوم الإنسانية ، العدد (٣٦) ، السنة التاسعة ، خريف ١٩٨٩ م .

ملخص باللغة الإنجليزية

This research studies subtlety (Lutf) in the Holy Quran expression . This research falls into three chapters preceded by an introduction included some affairs related to the topic of the study such as : Why I chose this topic , the difficulties that faced the researcher and the most important resources I used . The introduction is followed by a preface including defining subtlety and explaining what subtlety is .

As for the three chapters , the first entitled " The expression in the field of sexual intercourse , marriage relationship and private affairs " . This chapter inctudes three researches : the first studies subtlety in expressing sexual intercourse . It also studies subtlety in expressing marriage relationship . The second studies the private affairs of human . The third studies subtlety corceminh expressing dealing affair among people in society .

The second chapter includes studying subtlety through polite side of addressing . This chapter is entitled : " Subtlety in the expression of polite addressing " . It also includes four researches : the first studies subtlety in the style of supplication . The second studies subtlety in God's address directed to his prophets and friends " peace upon them " . The third includes studying subtlety in the prophet's address peace upon them directed to their people . The fourth includes another addresses through which I study the style of subtlety .

The third chapter is entitled " Between the toughness and flexibility in the address of worldly and after life . This chapter includes a comparison between the toughness of address and its flexiblitty and subtlety on the other hand . It fallsinto two researches . The first studies this life address and the second studies the life after address. The three chapters are followed by a summary and conclusion of the research and a list of refrences used in this research .

Aqeel Abdulsalam Muqaddam